محمود أبو عيشة

امرأةٌ فى المنام

رواية

التفتتْ حواءُ، التى هى قطعًا ليست أمنَا المعظمة، **حواء** أم البشرية، إلى **آدمَ**، الذى هو ليس أبانَا المعظم **آدم**، المخلوق بيد العناية الإلهية، وتحت عينها وبصرها، كما يعلم الجميع، أو، كما يجب أن يعلم، وكما روت الكتب المقدسة، التى لا يؤمن بها البعض، وينكرها البعض، ولا يصدقها البعض، الذى يرى أن الإنسان أصله قرد؛ ولكلٍ منطقه المعقول والمقبول أيضًا، ولا أحد يستطيع أن يثبت وجهة نظره، أو ينفى وجهة نظر الآخر، التى تستند إلى منطقها الخاص ودلائلها الخاصة أيضًا؛ لأنه، لم يكن أحدٌ هناك، ولم ير أحدٌ ما حدث، عندما خلق **اللهُ آدمَ** من قبضةٍ، قبضها **الله** من جميع الأرض، ليكون من بنى **آدم**، الأبيضُ والأحمرُ والأسودُ، الطيبُ والخبيثُ والسهلُ، وبلّ **الله** الترابَ طينًا لازبًا، وسواه جسدًا من طين أربعين عامًا، إبليس كان هناك، شاهدَ عيان، شاهدَ إثبات أو شاهدَ نفى، حسبما يرى إبليسُ نفسُه، يدخل من فم **آدم**، ويخرج من دبره؛ ويضرب الجسدَ الصلصالى، قبل أن يتعطف **اللهُ** على هذا الجسد وينفخ فى أنفه الروحَ، فيصوت الجسدُ الأجوف كما يصوت الفخار، ويتمنى إبليسُ، بحقدٍ أعمى، أن يُسلط على **آدم**، ويتوعده بالهلاك، حتى قبل أن يعرف لأى شىء خُلق، وقبل أن يُؤمر بالسجود له.

وحتى لا ينظرَ إلينا قارئُنا، العزيز، الغالى، النادر، بعين الريبة والشك، ولأن هذا أمرٌ لا يمكن معالجتُه بالطرق العادية، وكما تقتضى الأمانة، فى ظل روح الوضوح المقدسة التى ألزمنا أنفسنا بها، فإننا نعترف، دونما حرج، بأننا لن نستطيع الانحياز إلى أيٍ من الطرفين؛ لأننا، ببساطة، لم نكن هناك، ولم نشهد ما حدث، كما أننا لن نكون هنا، بعد الموت، ولن نستطيع العودة لنروى ما يحدث، إذًا، الإيمان هو القول الفصل، وكلٌ وما يعتقد، حسبَ الأصل الذى يرى أنه انحدر منه، إما من سلالة القرود الإفريقية الرشيقة، أو من سلالة **آدم** المخلوق بيد التكريم الإلهى مباشرة، وأسُكن الجنةَ، وأخُرج منها؛ لأنه لم يتحكم فى نوازعه الدنيا قليلًا، لو فعل؛ لكان وكنا، نرتعُ فى الجنة، ولما تجشمنا كتابة هذه الرواية، عن **آدم** الابن وليس الأب، وهو ليس وحيدًا تمامًا، فيما نعلم، مثل الأب، فـ**لآدم** الابن إخوة كثيرون وأخوات كثيرات، كعادة الآباء القدماء فى كثرة النسل، أولاً؛ لاستغلال الطاقة البشرية الرخيصة فى فلاحة الأرض، حيث يُولدون فى الغيطان، ويُتركون

على حواف الترع والمساقى والمصارف، من دون أى معاناة، فضلًا عن الولادة السهلة من غير آلام فظيعة، فى ذاك الوقت، بغير أطباء ولا مسكنات ولا مسرعات طلق، وثانيًا؛ وهذا عارض ثانوى، رغم إعلانات حسنين ومحمدين وشلبية، التى أغرقت الشاشات، لم تكن وُجِدتْ بعدُ وسائلُ منع الحمل المُجَرَبة بفعالية، رغم الأعراض الجانبية التى أودت بالنساء إلى هزال سريع، وضعف غير مفهوم ولا مبرر، ولا مقبول بالنسبة لأزواج شبان قليلى الخبرة والصبر، يلجأون، عادة، إلى الطلاق خاصة فى سنوات الزواج الأولى. لكننا؛ ورغم إخوة **آدم** الكثيرين وأخوات **حواء** الكثيرات، **حواء** التى وُلِدتْ، مثل كل الناس، بطريق طبعية من أم وأب، ولم تُخلق مثل **حواء** الأم، من ضلع أعوج كما هو معروف فى كل الكتب المقدسة وغير المقدسة، إذا ذهبتَ تُقيمه كسرتَه، أخذه الرب من **آدم** وهو نائم، ودعاها امرأة لأنها من امرءٍ أُخِذتْ، ودعاها **آدمُ حواءَ**، لأنها أمُّ كل حى، أو، كما يُقال، لأنها حوت الجمالَ، كلَ الجمال، رغم كل ذلك؛ بل بسبب كل ذلك، وحتى ننتهى من هذه الحكاية، سنكتفى بالكتابة عن **آدم وحواء** فحسب، وما يتعلق بهما من الأشخاص والأماكن والأحداث، حسبما يرى الراوى المُحَمل بعبء قول الحقيقة، إذا كان ثمة حقيقة؛ فكل حقيقة هى قناع، تُخفى تحتها حقيقةً أخرى أكثر جوهريةً منها، وليس الكذبَ، فنحن نكذب، بتلقائية نُحسد عليها؛ حتى إننا لا نشعر حين نرتكب الكذب، الذى يملأ حياتنا الواقعية والمُتخيلة على السواء، هما إذًا، **حواء وآدم**، أو، **آدم وحواء**، اسمان رمزيان فى حكايتنا المُتَخَيلة، ليس من الأساس طبعًا، بل تحوى بعض الحقائق المفزعة، والوقائع الأخرى التى استُبعدتْ، مثل واقعة المرأة التى اختفت من داخل حمام بيتها، من دون أن تُشق الحوائط أو تُنتزع النوافذ، وزوجها العاشق ينتظرها أمام الباب، حاملًا أشواقه وملابسها؛ نظرًا لغرابتها العصيّة على التصديق، من وجهة النظر العادية غير المُبدِعة، التى تعتمد الخيالاتِ والمناماتِ والأفكارَ المُتَمَناةَ بعمق داخل الإنسان، المستحيلةَ واقعيًا، وليس ذلك بدعًا فى الإبداع، فالفن اختيار بالأساس، خاصة فن الكتابة بما أنه الجنس، هذه الكلمة المظلومة، الأدبى الذى يُهمنا، فلم يُعرف فى العالم كله، فيما نعلم، باستثناء أسماء بعض الأفلام والكتب والقصص النادرة، أنّ أحدًا سمى ابنته الحبيبة إلى قلبه **حواء**، سواءٌ بسبب الخطأ الشائع، العارى عن الصحة تمامًا، الخاص بقصة الشجرة المحرمة، سواء كانت شجرة المعرفة، أم شجرة الحنطة، أم شجرة التفاح، أم شجرة الذرية، التى منعتْ **آدمَ** أن يقرب **حواء** فى الجنة، تلك الشجرة

الملعونة، أيًا كانت، التى أغرت **حواءُ آدمَ** بالأكل من ثمرها، عن طريق طريد اللعنة الإلهية، إبليس، الذى تلبس جسمَ الحية؛ حيث إنه محروم من دخول الجنة، وسوس لـ**حواءَ:**

لتكونا كالله عارفين الخير والشر، وتكونا خالدين.

حواء بدورها وسوستْ **لآدمَ** المسكين، الذى لم يصمد، كعادة الرجال دائمًا، أمام إغراء حوائهم، أكلا من الشجرة المحرمة؛ فانفتحت أعينهما ورأيا عُريهما فطُرِدَا من الجنة، ولُعِنتْ الحيةُ من جميع وحوش البرية، وحُرِمتْ من قوائمها، صارت على بطنها تزحف، وترابًا تأكل، وُضِعتْ العداوةُ بين الحية ونسل **حواء**، يسحق نسلُ **حواءَ** رأسَ الحية، وتلدغ الحيةُ عَقِبَ نسل ابن حواء.

التفتتْ **حواء** إلى **آدمَ**، وهى تدعك الصحنَ الأخيرَ، بحزنٍ لا يُمكن وصفُه، ولا تعرف **حواءُ** له سببًا، هناك، فى أقصى العمق، شىءٌ لا تدركه **حواء**، يسكنها تمامًا، يحتل جزءًا من رأسها، يسيطر عليها، أحيانًا تفرط فى الأكل، أى أكل وبأية طريقة، بطنها يؤلمها، لكن الهاجس لا ينتهى، بل يصير أكثر إلحاحًا وغموضًا وألمًا، يتملكها روح نكد، روح يأس، روح إحباط، ألمٌ غامضٌ يعتصر أنحاء جسمها، يهزم روحها، لم تعرف قط مما تعانى، وضعتْ **حواء** الصحن على رخامة المطبخ.

أخذ **آدمُ** يدَها وقبّلها، كانت متشنجة، باردة، قال **آدم:**

نروح للدكتور.

حواء الشاردة، لم تسمع. فركَ **آدمُ** يدها بين راحتيه؛ انتبهتْ. أعاد عليها بإلحاح نافد الصبر:

نروح للدكتور.

قالت متأففة:

مفيش فايدة.

وناولتْ **آدمَ** الشاى. فسلط أحدُهم عينيه الزاجرتين على عينيها؛ فخارتْ قواها، نملّ جسمها، سقط الكوب من يدها، وقعتْ على الأرض، رأتْ أحدَهم معلقًا فى السقف، يستفزها بابتسامة صفراء، حقيرة؛ زمجرتْ **حواء:**

إيه القرف دا.

ظن **آدمُ**، أن القرفَ موجهٌ لشخصه الكريم، فخرجَ، غاضبًا إلى المستشفى.

أطفأتْ **حواءُ** المصباحَ، بعدَ ذهاب آدم الغاضب والمتشنج أيضًا، ورقدتْ فى السرير تؤنب نفسها غير المذنبة تمامًا، من وجهة نظر تبدو عادلة وحيادية، تحاول الاقتراب الحذر من ضفاف النوم،

الذى تخشاه، وترتعد لمجرد ذكره، شغلتْ **حواء** نفسها بالتفكير فى أحداث اليوم العادية، منذ عودة **آدم** من عمله صباحًا حتى ذهابه إلى المستشفى ليلًا، تُغرق نفسها فى تفاصيل الروتين اليومى الممل، الكنس والطبخ والغسل؛ شُغل البيت الذى لا ينتهى، من طلعة الشمس لغطستها، حتى هذه اللحظة التى تنام فيها كل المخلوقات، تشتهى **حواء** النومَ من دون جدوى، تقاوم، وتقاوم حتى تسقط مرغمةً، منهكة حدَ الخدر، فى غياهب الجب السحرى للنوم، أشد ما تخاف الوقوع فى الحلم، الأحلام السيئة التى تسقط من طائر الحلم الأسود، الذى يحمل الحلم بمنقاره، فإذا تكلمت عن الحلم أو حكته لأحد، فتح الطائر فمه، فيسقط الحلم على أرض الواقع ويتحقق، لا تنام **حواء** إلا ميتْةً من التعب، لا تحكى أحلامها أبدًا، صارت مثل صندوق أسود، مغلق على الأسرار والأحلام والكوارث، يسقط الرأس إعياءً، وتحلق الروح تاركةً الجسد الميت مطبوعًا على السرير، خطفها النعاسُ لحظات، رأت نفسها عارية تمامًا، فى صحراء شاسعة، تتخطفها أيدٍ كلبية برؤوس شياطين يخرج منها ألسنة لهب، يطلق عليها نظرات حقد سامة، وسط جمع غفير، بينهم رجل أسود يلقى عليها عباءة بيضاء، يأمرهم أن يحملوها إلى البيت جثة هامدة، و**آدم** يقف بعيدًا عاجزًا عن الوصول إليها، هطلتْ دموعها ساخنة على خديها؛ فاستيقظتْ مذعورة، فتحتْ عينيها بخوفٍ حَذِر؛ تتحسس جسمها، تمسح خديها، رأتْ خيالًا ضخمًا فوق الحائط؛ عملاقًا فى الظلام، تداخلتْ فى بعضها من الرعب، سألتْ **آدم** الواقف أمامها، باستغراب، لماذا ترك المستشفى ورجع فى هذا الوقت، على غير العادة!؛ ابتسم بخبث ولم يرد، أخرسها الرعب، حاولتْ الصراخ، فوضع يده الخرافية أمام فمها، احتبس صوتُها فى حنجرتها، كادت تختنق، اقترب منها فى صمت مهيب، عرّاها تمامًا، وبهدوء قاتل محترف، نام معها، استسلمتْ مرعوبة، من دون أى رغبة أو متعة، إنْ لم تفعلْ؛ تجد، فى الصباح، آثارَ أظفار حادة، تشخبُ دمًا، وكدمات زرقاء وحمراء حول فخذيها ومناطقها المحرمة.

لا تستطيع **حواء** مغادرة السرير، تجر جسمها المضعضع؛ كأنها مضروبة علقة موت، قبل زمن لا تتذكره، كانت **حواءُ** طفلة صغيرة، تلهو بعرائس الطين والدُمى المحشوة بالقطن وقصاصات القماش القديمة وقش الأرز، تسمع حفيفَ أقدام تتبعها، يطلُ عليها فى المرآة، وهى صبية تتأمل مفاتنها الشابة، يبتسمُ لها مغذيًا حسًا نرجسيًا، تتحسسْ ضفائرها الطويلة الفاحمة بزهو؛ يُمعن فى التخفى، بحيلٍ شيطانية، خلف أصابعها الرقيقة وعينيها البريئتين، وجسمها البهى، ترى نفسها جميلة، جميلةَ الجميلات، تدور حول نفسها فى المرآة، تدوخ وتسقط على الأرض، يركع فوقها، يتحسسها برفق،

تفتح عينيها، يرفعها، من تحت إبطيها، بخفة طائر، يضعها فوق السرير، يحتويها بحنان آسر، يهدهدها بكثيرٍ من ألوان الغواية والإرغام، بطرق لا تُقاوم، يتيح لها متعًا سرية خارقة؛ شريطة أن يحتفظ بسيطرة كاملة عليها، تنام مستغرقة فى أحلام فاتنة، تخجل منها فى يقظتها، لكن **حواء**؛ رغم ذلك، وربما بسبب ذلك تحديدًا، لا تود أبدًا، أن تصحو من تلك الأحلام الفاتنة، هو، إذًا، شريك، عنيد، صعب، متمرس، يريد أن يستأثر بها، بكل وسائل التملك الممكنة تغلبتْ بصعوبة، على كل الأعراض والأوجاع والحالات التى يحاصرها بها، الاختناق، ضيق الصدر، كرشة النَفَس، كُره العرسان، حتى قبل أن تراهم، وهروبهم، بعد أن يروها، يذهبون على وعدٍ بالعودة، لم يتحقق قط، دفعها الخوف إلى اليأس، ودفعها اليأس إلى التحدى، فتزوجتْ رغمًا عنه، وبدأت رحلة مرض مضنية، أوجاع لا حصر لها ولا سبب، من دون أمل فى شفاء، يطاردها بأشكال وهيئات مختلفة، يرعبها بصور حيوانات خاطفة، يأتيها فى صورة **آدم**؛ أحب الصور إلى قلبها، تستجيب لمدعباته، تحبها؛ لطرقه البارعة فى الحب، تتوه معه فى دوامات حب خرافية، لكنها، بعد تكرار الأخطاء الشخصية العميقة، وعدم إتقانه بطرق مماثلة، التفاصيلَ الدقيقة والسرية التى تعرفها المرأة عن زوجها، اكتشفتْ أنه ليس **آدمَ**، ليس زوجَها، الذى يرتع كل ليلة فى حدائقها الغنّاء، ويمتص رحيقها المعسول، وينتهك، بوحشية مقيتة، قدسَ أقداسها، اكتشفتْ السرَ عندما أخذ يتردد عليها كثيرًا، ويطلبها فى نوبات عمل **آدم** الرسمية، ارتعبتْ؛ شلها الرعب، أفقدها النطق والحركة، يحرسها طوال الليل، يحدب عليها كأمٍ تحنو على رضيعها، يمسد شعرها بيده، وجسمها بعينيه، تُحِسهُ **حواء** حضورًا غير مرئى، يزداد كثافة كلما كانت وحيدة، نائمة، مستسلمة، مستكينة، وراضخة، يلازمها فى كل الأوقات، فى كل الأماكن، التى تتوقعها، والتى لا تتوقعها، فوق السطح، فى حجرة النوم، فى الحمام، فى المطبخ، يأتيها من الخلف طيفًا تحسه ولا تراه؛ يتنفس قريبًا منها، يلهث خلفها، تسمع وقع خطوات رهيفة، تتلفت مذعورة، لا ترى أحدًا، تفزع **حواء**، تلسعها النار، تسقط الصحون من يدها، تتهشم محدثة دويًا هائلًا؛ يتوقف قلب **حواء** من الرعب، تتنصت، تسمع صوتًا يناديها، يطن فى أذنيها، صوت **آدم** المحبوب:

حواء .. حواء.. حواء...

تتوقف **حواء** عن الحركة، تكتم النَفسَ، ترهف السمع، لا تسمع شيئًا، تتأكد أنها ليست وحدها، لكنها لا ترى ولا تسمع، تكاد تُجن، مرغمةً تعايشت معهم، فى حال من الاستسلام المطلق والتبعية

الكلية، يملأون الفراغ بصخب غير مرئى، يأتى أحدهم بحركات طفولية تُضحكها، يُمسك بطرف جلبابها وهى تغسل المواعين، يحمل عنها الغسيل إلى السطح، يناولها المشابك، يرتب السرير، يكنس البيت، أحيانًا يُخِيفُونَها بظهور عابر فى صورة قط أو كلب، أو عينين تبرقان فى الظلام، أو إنسان تعرفه مات منذ زمن، يجولون فى البيت، أطيافًا بيضاء أو سوداء شبحية؛ عرفتهم وأطلقتْ عليهم أسماء مألوفة، **سكينة السودانية** ذات الأنف الأفطس، **نور المستحية، مريم الجميلة** التى تملأ البيت بصلبان حمراء رفيعة موشومة بالدم المقدس، لكن أحدهم، أو إحداهن، الله وحده يعلم، عشق **حواء**، وهى أيضًا استمرأت الحال، بعد صدمة الرعب الأولى، والرفض اليائس؛ تماهت معهم، مثلما استراحت **عزيزة** فى الحرام، للمرة الثانية فى حضن **قمرين**، من دون مقاومة حقيقية، بعد مقاومة يائسة، بائسة فى المرة الأولى، ليس بسبب جذر البطاطا الذى اشتهاه **عبدالله**[1]، الزوج المريض، العاطل عن أداء مهامه المقدسة؛ لكن على الأرجح، نقول بضمير مستريح؛ لأنها فشلتْ فى مقاومة نفسها الضعيفة؛ بسبب الاحتياج الإنسانى العميق والقهرى غير المشبع، أو، تلك الواقعة الأشهر لبائع الشاطئ المتجول، الذى اغتصب السيدة، بنت الذوات، المحترمة، النائمة على شاطئ الأمان بلباس البحر، وحكم القاضى، مرغمًا، ببراءة البائع المُغتَصِب؛ لأن القاضى الحاذق فشل فى أن يضع طرفَ الخيطِ فى سمِ الخياط، الممسوك جيدًا بيد البائع المراوغة.

حدث لـ**حواء**، بعد البدايات المرعبة قليلا، ما يمكن أن يُسمى الرغبة المطلقة فى جماع دائم، أو السوداء، تلك الدودة النهمة لماء الرجال، الآتية من ألف ليلة، فراحتْ **حواء** تتخفف من ملابسها، التى تمثل عائقًا أمام الزائر الليلى المرغوب فيه بشدة، بعدما كان مرغوبًا عنه، بل مكروهًا، إلى وقت قريب، حين تمكن بحرفية شيطانية من إروائها، تنتظر **حواء**، كل ليلة، على أحرّ من الجمر، تتلوى فوق سرير الرغبة، فى طقس احتفالى وثنى، غارق فى ظلال الشهوة الحمراء الخافتة، والروائح الوهمية ذات الأثر المدهش، فى المرات الأولى، انهارتْ **حواءُ** من الرعب والسعادة والإثارة التى فاقت الحد، كان فاتنًا كأى شيطان، أشبعها برقة لا يعرفها الآدميون، كانت تعيش الحلم، تُحسُ به طيفًا أمام عينيها، خاطرًا يملأ وجدانها، جميلًا وناعمًا، شابًا يافعًا يشعل خيالها، يكلمها بصوت مألوف، غرقتْ **حواء** معه فى لذة تفوق الوصف، انجذبت، تنعم فى كسل نهارى لذيذ، تنشط فى الليل، بعدما يذهب **آدم**، بطريقة ملفتة، تدب فيها قوة غريبة ونشاط فذ، فوق العادة، ترتجف روحها

[1] أبطال فيلم الحرام.

ويرتعش جسمها من الإثارة، تقف أمام المرآة، تتزين وتتزين، تتعرى، تنام على ظهرها، فاتحةً ساقيها للريح، يتسلل إليها فى خفوت، ينفضها بقوة ناعمة، ليالٍ سرمدية مفعمة بالسحر، و**حواء** تنعم بعرس الشهوة الخارقة، لا يتركها إلا مع طلوع النهار، منهكة تمامًا وسعيدة، لكنها؛ بعد السكرة والدوام القاهر؛ لم تعد تحتمل قوته الرهيبة، ورعونته المفرطة، وتهديداته الفظة، ضرب حولها حصارًا من الغيرة، أمسكها بقبضة حريرية، يراقبها طوال الوقت، يتخايل أمام عينيها، يوقظها من عزّ نومها، يأتيها أَنَّى شاء، يجلدها بديكه المرعب كحمار حصاوى متمرس، تستسلم **حواء** رعبًا، أو، حبًا، لا نعرف يقينًا؛ ولأنه لن يصدقها أحد، ولأنها لا تعرف كيف تقول؛ حياءً أو يأسًا؛ لم تفكر **حواء** أو تحاول أن تتكلم، ولو لمجرد التخفف والفضفضة، فذُهِلتْ عن نفسها، أمنّتْ سره؛ هيأت له حياة هانئة فى الخفاء؛ تمادى، من دون أى عوائق أو منغصات، فعلَ أشياءَ غريبة لا تقدر عليها **حواء** الإنسية، ولا يمكن وصفُها هنا؛ تأدبًا، تسلط عليها بالموت والخراب، فهربتْ منه، طاردها بألسنةٍ من لهب، خرجت عارية، تضوى فى غبش الفوانيس الضبابية، المزروعة على نواصى الشوارع، المرشوشة بمياه نظيفة تحملها فناطيس تجرها البغال الاسترالية، تصوت وتلطم، كان أهل البلد مجتمعين، فى حرم المجلس داخل سور من السلك الشائك والحجارة، يتعجبون رهبةً، من الأشباح التلفزيونية التى تتحرك أمامهم، فى سهرة الخميس، فانطلوا خلف **حواء**، مؤجلين، بفرحة عارمة، المعركة الأسبوعية التى تنشب بينهم، فثمة معتقد جازم، لا يقبل الجدل مطلقًا، بأن الحديد إذا تكلم فانتظروا الساعة، وقد تكلم الحديد، فوجب الانتظار المر، انطلقوا يستعيذون، يحوقلون، يكبرون، تحلقوا حول **حواء** صامتين كأن على رؤوسهم الطير.

انتهى **عصفور أبو رضا**، قليل المِروَّة، إلى الحلقة البشرية الذاهلة؛ متأخرًا بعض الوقت؛ نظرًا لعوامل السن والدخان الذى نخر صدره، تسلل بهدوء، وقف على رأس **حواء** المصروعة، ثم سلتَ نفسه من بين التماثيل المحنطة، اتجه مباشرة إلى الرجل الوحيد الذى يجب أن يكون هنا، الشيخ النوبى، كما يطلقون على **جاه الرسول**، سار **عصفور أبو رضا** بحذاء السور الخارجي للمنزل الواسع، المبنى بالطين، المرشوش بالجير الأبيض، المزين بنقوش نوبية، ورسومات غاية في الروعة لامرأة نوبية باسمة تحمل جرتها، طرق بابًا خشبيًا، فتحت له **أم الخير**، قادته إلى فناء مكشوف، تحيط به غرف الدار من جميع الجهات، أجلسته فى المندرة المخصصة لاستقبال

الضيوف، داخل الحوش السماوي، دخلت القباوى[2] حيث ينام **جاه الرسول** لتوقظه، خطفتْ رِجلها إلى الديوكة[3]، لتحضر الكركديه؛ لزوم الضيافة التى اعتذر عنها **عصفور** بأدب؛ مُبديًا قلقه على **حواء**، حضر **جاه الرسول** ينفض آثار النوم، ودعتهما **أم الخير** حتى الباب الخارجى وهى تضع العباءة على كتفى زوجها، عبرا معًا إلى ميدان الحرازية، فوق جسر ترعة الخرس البحرى المظلل بأشجار الكافور العملاقة، أفسح الناس للشيخ النوبى، شقَ الجموعَ المرعوبة، إلى **حواء** المأخوذة عنوةً، وسترها بعباءته البيضاء الكتانية، جلس عند رأسها يقرأ آيات السكينة؛ استكانت **حواء** وغابت عن الوعى، فأمرهم أن يحملوها إلى البيت.

***

[2] حجرة النوم النوبية.
[3] المطبخ النوبى.

وصل آدمُ، حزينًا، إلى المستشفى، رفع السلك الشائك بيده اليمنى، داس على السلك الآخر بقدمه اليسرى، ليصنع قوسًا يدخل منه، أمسك ذيل الجلباب الأبيض والبالطو الكاكى بين أسنانه، انحنى برفق ودخل برجله اليمنى، أوقد **آدم** نارًا صغيرة، بجوار حجرات المستشفى العشر المجدولة بالبوص، وغرس فيها كنكة الشاى، وتربع أمامها، يدفئ يديه على لهبها:

امرأة لا تُطاق.

قال **آدم** لنفسه ونفخ زفيرًا محرقًا، لم تكن **حواء**، زوجة **آدم**، تعدم جمالا شكليًا أخاذًا، خاصة فى أوقات الصفاء النادرة بطبيعتها، لكنها، **حواء** زوجته، تمتلك، على عكس الشائع، روحَ نكد خالص، نشطًا على الدوام؛ جمال **حواء** الفذ يخلق حالًا من البلبلة، فى الأفكار والمعتقدات الراسخة فى نفوس وقلوب وعقول الرجال، الذين يتهافتون على **حواء** الجميلة؛ باحثين بقوة عمياء، جاهلة عن السعادة، متناسين تمامًا، الجمالَ العقلى والذكاءَ العاطفى هما ما يوفران حصنًا منيعًا للرجل، يستوعب الطفلَ بداخله، ربما يرجع ذلك إلى انعدام الخبرة الإنسانية فى التعامل الحياتى، وهوس الشباب، فى بداية حياتهم، بالجمال الحسى البحت.

انسدت أبواب الدنيا فى وجه **آدم**، الذى يعيش اضطرابًا نفسيًا، وهمًّا يجعله متوترًا على الدوام؛ لدرجة أنه لا ينام، على وجه الدقة، لا ينام بطريقة صحيحة، أو فترات كافية متصلة، ينام **آدم** نومًا مُؤرقًا، مثل القطط ينام بنصف عين، يخاف؛ بسبب ضميره المُؤَرق، أن يقع تحت سيطرة ما يمكن أن يُسمى بالانحراف، من دون مبرر، يفكر **آدم** دائمًا فيما ينقصه بشكل حيوى، نصفه المحروم، النصف الأسفل، **وعد**، التى وهبته الروح المشبوبة، والسخاء الجسدى الاحترافى المنقطع النظير، أو النصف الأعلى، **حُسنة**، التى وهبته الاحتواء الروحى، يتشظى **آدم** مثل إناء من الفخار أُخرِج من النار، وأُلقى توًا فى الماء البارد، فتشقق وتناثر إلى آلاف النتف الصغيرة غير المرئية، يحلم بالنصفين معًا، يفتقدهما بشدة، يبحث عنهما بدأب محموم، مع عدم وضوح الرؤيا، جرب **آدم** كل الحيل الممكنة، الشرعية وغير الشرعية، الوعظ والهجر الذى يعذبه هو لا هى، جرب **آدم** كل

الأساليب الأكثر حداثة فى العالم، والأكثر رقة، من دون جدوى، **حواء**، من جانبها، مَخَلَتْش للصلح مرقد، ولم تدع بابًا مواربًا، أغلقت فى وجه **آدم**، بفقر روحى فذ، كل الأبواب.

ركن **آدم** رأسه إلى السور، ينتظر الشروق فى انسجام خادع؛ عيناه مغمضتان، ينظر إلى الداخل، تجول بخاطره حياته كلها، لحظات السعادة فائقة الندرة، أيام التعاسات المرهوبة، غير المتناهية، حواء، زوجته، غير المحتملة، دائمة الشكوى، من الأحلام المرعبة، من الصداع، من وجع جنبيها ورجليها وبطنها، داخ **آدم** بها على الحكماء، من دون فائدة، لم تكف **حواء** عن الشكوى قط، أصابها نسيان وخمول وشرود دائم، تحدق فى الفراغ، أفاد الحكماء، بيقين مطلق، بناءً على إجابات **آدم**، أن **حواء** لا تعانى مرضًا عضويًا، وظهور الأعراض وانتقالها من عضو إلى آخر، حالة نفسية من حالات الشخصية المتعددة، أو هلوساتٍ ذاتيةً من نتاج الدماغ، أو حالة إدراك فوق حسى، تتحرر فيها الروح من الجسم، وتتحول إلى أثير، المشكلة أنه، **آدم**، مثل كل الناس، لا يقولون الحقيقة عندما تُوجه إليهم الأسئلة؛ كنوعٍ من الحيطة ضد التضحية، وما يترتب على تلك الإجابات المتحفظة، أو غير الدقيقة، من نتائج، ربما تكون غيرَ مرجوة، **آدم** لم يفهم سوى أن زوجه امرأة مسحورة يقتلها الضجر، يسحقها هوس التخلص من حياتها؛ يهجرها آدم مغلوبًا على أمره؛ فتطارده **حواء** بحيلٍ نسائية، نادرًا ما تخيب، تلبس فستان عرسها الأبيض؛ تطل من عينيها نظرات رؤوم، تتمسح فيه مثل قطة، تدفن وجهها فى صدره، تداعب بأنامل عاشقة شعرات صدره الفضية النافرة، تغرق **آدم** بقبلات رطبة فوق رءوس أصابعه، تبدو **حواء**، لحظتها، أجمل نساء العالمين، امرأة لا تُطاق فتنتُها، ينظر **آدم** إليها بولهٍ، يتحولان معًا، **حواء** و**آدم**، فى لحظة خارقة، إلى كائن مكتمل، تعصف بهما شهوة الحب، يغزلان كونًا رحبًا، مفعمًا بأطفال الحنين، هى واحدته، وهو واحدها، تكون **حواء** مبتهجة، تضحك بهستيرية، تغيب فى نوم ملائكى، تحوم حول وجهها المتورد خيالات مبتسمة، يضىء وجهها مثل بدر، لكن الحال لا تدوم، فسرعان ما تتحول، لم يعد **آدم** يطيق، لا بد من حيلة.

الإزاحة، هى الكلمة المناسبة لما يريد أن يكون، على **آدم** أن يحاول فحسب؛ وإلا ظل إلى نهاية عمره، وليس الليلة فحسب، يأكل نفسه، يهرى وينكت، لا بصيص أمل، يحاول **آدم** أن يصل إلى حل، أربعة وعشرون عامًا هى رحلة البحث المضنية عن مَخرج، يحاول أن يجد برًا للخلاص، هى أيضًا مدة زواجه، إضافة إلى عام ونصف العام من الخطبة السعيدة، التى يتلألأ ذكرها فى مخيلته،

تتراقص أمام عينيه، كلما افتقد **حواء** التى أحبها، جرب **آدم** كل الحيل إلا أن يكون ذلك الرجل المجهَد، المستسلم للأقدار من دون قيد ولا شرط، حتى لو كانت أقدارًا مستفزة، تضعه أمام خيارات معدومة، ترضون تسعدون، إن صبرتم أُجرتم وأمر الله نافذ، تسخطون تشقون، وإن لم تصبروا لم تؤجروا وأمر الله نافذ، إذًا، رضا السعادة، أو، سخط الشقاء، ما يحير **آدم** حقًا هو ذلك الطيف، أو الشبح أو الشيطان، لا يدرى ماذا يكون بالضبط، الذى يلاحقه بأنفاسٍ خائفة، وهيئاتٍ متلاحقة فى منامات متقطعة، تطارده أطيافٌ بخارية تذوب فى نور النهار، حضورٌ غير مرئى، يتكاثف، يخف، يتلاشى، ربما تكون حالةً دماغية، ناتجةً من شدة الخوف أو شدة الرغبة، تتجسد هذه الأطياف من داخل الدماغ، لأنه كما نعلم جميعًا، الذى يخاف من العفريت يطلع له، **آدم**، الذى يعرف ذلك أيضًا، يقاوم، بقلب مرتعش، عسفَ الأبالسة الليليين، الذين يجهدونه دائمًا، يتعرق فى عزّ البرد، يتفزز فى نومه، يستيقظ منهكًا؛ كأنه بات يعاشر قبيلة من النساء فى وقت واحد، يسرى الخدر فى ذراعيه وساقيه وظهره، يشرد إلى الخلاء؛ عازفًا عن حواء المُلهِمة؛ غارقًا فى حكايات **عصفور أبو رضا** العجيبة، حلم يقظة طويل، يشغل ليلَ **آدم** السرمدى، بعد الصلاة والسلام على خير الأنام، عن شيخ كبير، ذى سمعة وصيت، يجول فى أرضه راكبًا حصانه سبعة أيام بلياليها، ولا يصل إلى نهايتها، ومن فرط تواضعه وتدينه، يزور المقابر كل صباح؛ طلبًا للعبرة والموعظة، وذات يوم كان ماشيًا فى دار الخلود، فوجد جمجمة كبيرة غريبة الشكل، مكتوبًا عليها، **يا ما عملتى ويا ما هتعملى**؛ أخذه العجب؛ ولأنه محبٌ للخير وبتاع ربنا؛ قال فى نفسه، **أريح الناس من شرها**؛ حمل الجمجمة معه إلى البيت، دخل بهدوء؛ حتى لا يلحظه أحد، أغلق على نفسه، طحن الجمجمة فى الهون، جمع المسحوق فى برطمان من الزجاج السميك، لم يشعر بالوقت فأدركته الصلاة، دخلت عليه ابنته الوحيدة؛ لتنبهه، فارتبك، وخبأ البرطمان كيفما اتفق، وأسرع إلى المسجد؛ الفضولُ، لعنهُ الله، الذى أخرج **حواءَ** من الجنة، سوّل للبنت أن تفتح البرطمان، وتلحس لحسةً من المسحوق الأصفر الناعم، اقشعر بدنُها البكر كله كأن مسًا أصابها، قبل أن تلفظ المسحوق الحنط، وتضع البرطمان فى مكانه، وعلى هيئته السابقة نفسها.

قبل انقضاء الشهر العربى السابع، مرضت البنت مرضًا شديدًا، حزن الأب لمرض ابنته الوحيدة، أحضر لها الطبيب، بشره بأن البنت حامل، اسودت الدنيا فى وجه الأب، وقال فى نفسه، **كيف وهى عذراء، لم يمسسها بشر!**، كظم غيظه أمام الغرباء، حتى انفرد بالبنت، حبسها وهددها

بالقتل، إذا لم تعترف بالمجرم الذى لم يوجد قط، المسكينة عبثتْ فى تلافيف ذاكرتها برعب البرىء، تذكرت المسحوق الأصفر، روتْ لأبيها، بخجل عذراء، ما كان منها بشأن اللحسة ذات الطعم غير المُستساغ، والقشعريرة، وآلام الشهور السبعة الخفية؛ تعجب الأب؛ لكنه صدق؛ لأنه يريد أن يصدق، تحت سياط حبه لابنته الوحيدة، وخوفًا من الفضيحة والجُرسة، حَسَبَ الأبُ شهورَ الحمل، فكان اليوم نفسه الذى أحضر فيه الجمجمة، وطحنها، وترك المسحوق وذهب إلى الصلاة، كتم خبر الحمل العجيب، وأشاع أن ابنته مرضت مرضًا خطيرًا وحجبها عن الناس، لا ترى أحدًا ولا يرها أحد.

مرت شهور الحبل بسلام، وولدت طفلًا جميلًا ليس له مثيل، حمل الأبُ الطفلَ وتركه أمام باب المسجد، ورجع متخفيًا فى الظلام، خرج متأخرًا إلى المسجد، على غير عادته فى التبكير لصلاة الفجر، وجد الناس مجتمعين على طفل لقيط، وجدوه على باب المسجد، وإمعانًا فى التمويه، عرض الأب على مشايخ وكبراء البلد أن يربيه أحدهم، امتنع الجميع، فأخذه متظاهرًا بعدم الرضا، ليكون أخًا لابنته الوحيدة المريضة، فدعوا له بالبركة وطول العمر.

مرت السنون سريعًا، صار الطفل صبيًا يافعًا، لم يُر مثله فى الجمال والنباهة، أحبه الشيخ وقرّبه إليه فى المجالس، يجلس بجواره مطرقًا إلى الأرض حياءً، يستدرك بأدب جم، على بعض الأحكام، ذاع صيت الغلام فى الفطنة والذكاء والحَل والعَقد؛ وذات يومٍ والجلسة منعقدة، سمعوا منادى الملك، ينادى فى الطرقات، أن الملك يرى حُلمًا يمنعه النومَ، ولمَنْ يفسر هذا الحلم مكافأة عظيمة، استأذن الغلام والده الشيخ، ليسمع الحلم، قال رسول الملك:

إن الملك يرى غرابًا أسود، يأكل جبنًا أبيض، فى قصر الملك، وكلما همّ الملك بإمساك الغراب يطير الغراب من بين أصابع الملك، فيصحو الملك مروعًا؛ لا يستطيع النوم مرة ثانية.

قال الغلام: **أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ.**

قال الأب: **ومَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلامِ بِعَالِمِينَ.**

قال رسول الملك، الذى أمهله الملك ثلاثة أيام:

إما الحل وإما المقصلة، رأسى برأسك.

توسل الأب لابنه :

وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ.

فقال الغلام:

لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَاب.

احتشدت الناس لليوم الموعود، دعا الملك الوزراء والقواد وأرباب الدولة وأركان الحكم، نُصِبتْ المقصلة، التى سالت عليها دماء كثيرة بريئة، كان أصحابها يطمحون، بطمع بشرى مشروع، إلى عطية الملك، مَثُلَ الغلام فى الحضرة الملكية، شامخًا، لم يكترث بالحراس والحُجَاب والعسكر، قبّل الأرض بين يدى الملك، تعجب الملك من جماله وفطنته وأدبه، وقال الغلام للملك:

ماذا ترى؟

قال الملك:

أرى غرابًا أسود، يأكل جبنًا أبيض من يدى، وكلما هممت بإمساكه طار.

تبسم الغلام فى هدوء، فاغتاظ الملك، من دون أن يُظهر ذلك، فالملوك عادة، حفاظًا على هيبة المُلك، خاصة فى الحكايات القديمة، لا يُظهرون مشاعر الضعف الإنسانى التى نظهرها نحن ببراعة.

قال الغلام:

تنازل لى جلالتُك عن المُلك ساعة.

قال الملك هازئًا:

السمع والطاعة مولاى الملك."

وأشار بسبابته ذات الخاتم الملكى، إلى مسرور السياف الأشهر، الشاهر سيفه؛ المتأهب دومًا لقطف الرؤوس اليانعة وغير اليانعة.

قالت الملكة الجالسة عن يمين الملك:

دعه مولاى، نتسلى بعض الوقت، ويُفرح قلب جلالتكم المكلوم، قبل أن ينعم عليه مسرور بقطف رأسه الجميل.

امتثل الملك لأمر الملكة؛ إمعانًا فى إرضائها؛ فهى أصغر الملكات.

قال الغلام لوصيفة الملكة الأولى:

انزعى ثيابك.

ارتاعت الوصيفة ونظرتْ إلى الملكة نظرة استغاثة مرتعبة؛ تبسمتْ الملكة ونظرت إلى الأرض، امتثلت الوصيفة مكرهة.

قال الغلام للملكة:

وجلالتك أيضًا."

فزعت الملكة، استغربت من وقاحة الغلام، ونظرت إلى الملك تستعديه على الغلام.

قال الملك باسمًا، وقد أعجبته اللعبة:

هو الملك لا أنا.

فسقطت الملكة على الأرض مغشيًا عليها؛ تطلع الجمع مبهوتًا إلى الوصيفة الأولى، التى لم تكن إلا عبدًا أسود أهداه الملك إلى الملكة، فى عيد ميلادها العشرين، أشار الملك الصغير إلى الملكة وقال:

هذه هى الجبن الأبيض.

ونظر إلى الوصيفة الأولى وقال:

وهذا هو الغراب الأسود.

خطرت ببال **آدم** كل حكايات الغربان، الموسومة، رغم ذكائها، بالشؤم فى عُرف البشر عديمى النظر، بغير ذنب، سوى أن الله الذى كتب على كل حى ما كتب، الله نفسه سبحانه وتعالى هو الذى بعث الغراب ليبحث فى الأرض؛ ليُرى الإنسانَ القاتل كيف يوارى سوءة أخيه المقتول، ليس بسبب امرأة كما يُشاع، لتحميل المرأة، ظلمًا وعدوانًا، كل خطايا البشر، إنما، وهذا هو الأرجح، بحسب القرآن الكريم الذى **لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ**، بسبب قربان لم يتقبله الرب من الأخ القاتل، هذه الغربان المكروهة تقتل أى غراب يعتدى على أنثى غراب آخر، بعد محاكمة عادلة، في أرض خلاء، تحت حراسة مشددة، يُنكس رأسُ الغراب المتهم، ويُخفض جناحاه، ويُمسك عن النعيق اعترافًا بذنبه، فإذا أصدرت هيئة المحكمة الحكم بالإعدام، وثبتْ جماعة الغربان على الغراب المذنب تُوسعه تمزيقًا بمناقيرها الحادة حتى الموت، وتحفر له لحدًا يتواءم مع حجم جسده، وتهيل عليه التراب؛ احترامًا لحرمة الموت، الغراب هو نفسه الذى دل الفلاح الطيب الذى أطعم السمكَ اللبنَ والخبزَ، فأهداه ملك البحار طاقية منطق الخرس، مكافأة له على عمل الخير، فسمع بفضل هذه الطاقية، وكان نائمًا تحت الشجرة، الغرابَ الأب ينهى الغراب الابن عن إيذاء ابن **آدم**

المكار، لكن الغراب الصغير، قليل الخبرة، لم يسمع كلام أبيه المحنك؛ فأمسكه الفلاح وهو يحاول أن ينقر عينه؛ وأراد قتله، لولا أن الغراب الأب افتدى فلذة كبده بالكَنز المخبوء فى عمق الصحراء.

آدم لا يعلم الطريقة التى يَعمل بها المخ فى هذه الحالات؛ ليظل الإنسان محسوبًا على الأحياء، كان مثل صياد أحول اصطاد عصفورة حولاء، وضعها، بحرص شديد، خارج القفص، فدارت حول نفسها ودخلت القفص، لماذا الغراب الأسود تحديدًا، وكل الغربان سود، من بين الحكايات الكثيرة التى حكاها **عصفور أبو رضا**، فى ليالى السهر الشتوية حول النار؛ لحراسة أكوام الزلط والرمل والأسمنت، التى ستكون، فيما بعد، المستشفى الأميرى الذى يُدَشن وأغنية **أنت الحب** فى العام نفسه، يتعذب **آدم** لأنه يرى مَنْ يُحب تتعذب، **حواء**، أحب المخلوقات إلى قلبه، كان مستعدًا أن يفعل أى شىء لتبرأ **حواء**، ويعيش حياة طبيعية مثل كل الناس، ليس لديه، مثل معظم الناس، طموحات فذة، كل ما يطمح إليه، فى هذه الدنيا، الصحة والستر، لكن ما يكابده فوق طاقة البشر، وهو الذى تربى محمولًا على كتف جَده **أبوهمام** الذى قال له:

هشيلك لحد شعرك ما يطلع.

وحين طلع شعر ساقه، قال آدم لجده فرحًا:

الشعر طلع.

احتضنه الجَد بحنان ورفعه إلى السماء، وتلقاه بين ذراعيه ضاحكًا من سذاجة الحفيد المحبوبة:

مش دا، اللى فوق.

وأشار إلى وسطه؛ مات **آدم** الصغير من الخجل والانبساط مؤكدًا، عمق العلاقة، بين **آدم** و**أبوهمام**، ليس علاقة جد بابن ابنته الوحيدة والمحبوبة أيضًا **أنيسة**، أكثر منها علاقة رجل بابن شيخوخته، يرى فيه الصاحب والونس، أو ما يعطى الحياة معنى، وامتداد الذكر وعمار السيرة، لدرجة أنه عندما دخل المدرسة، ونادوا عليه، **آدم محمد عواد**، لم يرد، ضحك عليه الصبية، ولكزه المدرس بعصا رفيعة فى جنبه:

أنت مش عارف اسمك.

كان يعرف، حتى هذه اللحظة، أنه ينتمى لحسن **أبو همام**، وليس لعائلة العويشة، التى تنتهى إلى عُدى قبيلة الفاروق، كما سيخبره **حسن أبو همام**، فيما بعد، يوم الساقية، حزن **آدمُ** يومها وعرف أن له أبًا، غير **حسن أبو همام**، هذا الذى يناديه بأبى، وأحب أن يعرف أباه الحقيقى، فكّر فى

حيلة، عزم جده على فيلم الأسطى حسن؛ لأن الجد **حسن** كان مغرمًا بوحش الشاشة، فى سينما سعودى، الذى بنى مجده بعصامية نادرة، المحاطة بسور عالٍ من الحجر وسط أرضٍ زراعية، يدير **شفيق سعودى** الشريط السينمائى على بَكَر بيده، وهو يتناول العشاء وسط العمال، فى حجرة التحكم التى تواجه حائطًا أبيض فى المقدمة، أمامه مساطب مبنية من الطوب والأسمنت، مخصصة لعائلات كبار الموظفين، التذكرة بمليم أو بالجرى السريع من تحت يد قاطع التذاكر الرابض على الباب، لتتندس وسط الأطفال فى الترسو الذى يتحول، حين تبدأ خناقات الشاشة، إلى ساحة معارك جنونية.

جاء **عم مجاهد** بالكولا الساقعة، أشعل **آدمُ** سيجارة وناولها لجده، قال متهيبًا:

أبويا مين.

هبّ الجَدُ واقفًا فطوح الزجاجتين ومنفضة السجائر، وخرج غاضبًا، سار **آدم** خلفه، صامتًا، فوق الجسر الترابى، فى ظلام ترعة الخِرس البحرى المسكونة بجنية، تنادى على النفر باسمه، وتنزل به إلى عالم الظلام الرهيب، أحيانًا تطفو الجثة، بعد أيام وفى مكان مجهول، فوق سطح الماء، وكثيرًا لا يظهر لها أثر، هطلتْ دموعُ الجَد تروى حكاية الأمِ العاشقة، أمِ **آدم** التى عشقت أبا **آدم** حتى الموت، **آدم**، الصغير حتى هذه الليلة، لا يعرف أمًا غير **أم همام**، التى لم يرَ غيرها منذ اكتحلت عيناه بالنور، ماتت أمه، التى ولدته، **أنيسة** بنت **حسن أبو همام**، بعد أبيه بسبعة شهور، تركت **آدم** رضيعًا؛ فلم يعرف معنى السقوط المروع، إلى فاقة امرأة لا تعرف من الدنيا إلا الحارة، وليالى السخاء الشتوية فوق ظهر الفرن؛ والنساء اللاتى يأتين خصيصًا لرؤيتها، ويتعجبن من بياض كعبيها شديدى الاحمرار، وهى تغسل المواعين فى ترعة الخرس البحرى، وسط أسراب البط والأوز، ماتت **أنيسة** أم **آدم**، حينما لم تجد ما يكفى من الحنان، برغم ليالى الكرب التى قضتها، تُصارع الأفكار السوداء، فى انتظار زوج مات عشقًا، لم يكن له الزواج أصلًا؛ حسبَ نصيحة الحكماء، أخذها **أبو همام** رغمًا عنها من بيت زوجها الميْت، حتى لا تظل فى البيت، تخدم **شوق** حماتها، أو **حسنة** سلفتها، لأن زوجها مات ولن يعود؛ سقطتْ **أنيسة**، و**آدم** ما زال فى رحمها، محطمة على العتبة؛ داخوا على حكماء البلد: **عدوى**، **بنيامين**، **دراهم**[4]؛ بحثًا عن داء خفى أصاب قلب الأرملة الصغيرة، فى نهاية المطاف قال لهم الدكتور **عسل:**

[4] أطباء طوخ المشهورون.

فرفشوها؛ حالتها النفسية وحشة.

اشترى **أبو همام** راديو إيطالى ماركة ماركونى، بالتقسيط، لم تسمعه **أنيسة** قط، كرهتْ حتى ابنَها الوحيد؛ فلم يتمكن من رضاع لبنها، رضع كل النساء اللاتى جئن لعيادتها، كنستْ أضرحة الأولياء، فى شرق البلاد وغربها، استحمت بترابها، طلعتْ برج المحلج والصهاريج ومآذن جوامع البلد الكبيرة، العمرى والعليمى وزعزع والزعيرة، نصبوا لها الرضوة[5]، فى حجرة عالية السقف، ترى الشارع من شباك مرتفع بأسياخ حديدية مستطيلة؛ لاسترضاء ملائكة العالم السفلى، وتكفيرًا عن الخطايا غير المرئية، ودفع الضرر الفاحش الناجم عن الجهل، أو التطاول، أعدوا مائدة فخمة من الأطعمة القربانية، اللبن والخبز والعسل، وثلاثة أزواج من الحمام، الأبيض والأسود والمبلق، نامت **أنيسة** ليلة كاملة جنب المائدة القربانية، وهى تلبس الأبيض وتلف وجهها بشال أبيض، وسط حلقة من النساء، يقودهن الشيخ **أبودقة**، بشعره الطويل المضفر، تحت عمامة خضراء، وصديرى ملون بألوان حريمى، فوقه جلباب أخضر، مقمط فى وسطه بشال أبيض، تتدلى من رقبته مسبحة خشبية كبيرة وطويلة، وعُليقة جلدية مملوءة بأحجبة كثيرة مختلفة الأحجام والأشكال، بيده سيف خشبى طويل، يلامس به أكتاف النساء اللاتى تتموج صدورهن الوافرة، لعدم إحكامها جيدًا بسبب حمالات الصدر اليدوية الصنع، يبدأ الزار بالدق على رق كبير، برتم بطىء، يحمى تدريجيًا حتى يصل إلى حال الهستيريا والدروشة، تقع الفرائس واحدة وراء الأخرى، وسط الإنشاد والتعازيم؛ بهدف استحضار الأخوات الطيبات لصرف الأذى، نضح جسم **أنيسة**، عروس الحفل، التى يقام الزار على شرفها، تحت ثيابها البيضاء السابلة، اشتد الدق فانتفضت وشهقت شهقة موت، هبدت على الأرض، وسط خليط من روائح الدم والعرق والدموع؛ بدتْ مثل زهرة بيضاء، اجتمعت نساء الحارة فى دهليز البيت الكبير، جلسن على المسطبة، أغلقن عليها باب القاعة التحتانية، دخلت شوق وبناتها، أخفين صرة الهدوم والصيغة، تحت سرير عرسها ذى العساكر النحاسية، سَبَلْنَ عينيها ولثْمنَها، غيَرّن هدومَ نحبها، فى طقس احتفالى حزين مبطن بفرح مَنْ اعتاد الموت بألفة شديدة.

وصل **أبوهمام** إلى ساقية مهجورة، بجوار مصنع حلاوة الضب، وقف على المدار تحت شجرة توت عجوز، وقال **لآدم:**

أنت من أحسن عيلة فى البلد، أصلكم عرب من قبيلة عُدى، قبيلة عمر بن الخطاب.

---

[5] الزار.

وأشار على طول ذراعه وقال:

شايف الأرض دى كلها.

آدم المذعور، لم ير شيئًا فى الظلام الحالك؛ أكمل الجد بالحماسة نفسها:

الأرض دى كلها مِلك سيدك عواد.

ارتعش الجسم الفارع لجَدٍ يعانى سكرات الشيخوخة، صرخ صرخة وصلت مشتهر[6] وأجوارها، نزلت دموعه العزيزة، للمرة الثانية فى حياته المديدة، المرة الأولى عندما رفض موظف الصحة اسم هتلر، الذى اختاره **حسن** لابنه الحبيب، فاستدعى المأمور، الذى أقنع **حسن** بصعوبة، بأن يسمى ابنه **همام**، على اسم مدير البوليس السياسى قبل الثورة.

انتبه **أبوهمام**، لقدوم الفجر محمولًا على صوت نصر الدين طوبار الشجى الباكى:

بك أستجير ومن يجير سواك، ارحم ضعيفًا يحتمى بحماك.

مسح الجد دموعه وقفل راجعًا، يتحسبُ لهَمٍ أنقض ظهره، أضاف إلى عمره سنوات شيخوخة عاجلة.

اسقبلتهما **أم همام**، التى لا تنام حتى تطمئن على زوجها ولو طلع الفجر، بلهفة، على باب الشارع، ضربتْ صدرَها بكفها وقالت:

جرى إيه يا حسن.

شخط فيها:

اخرسى يا ولية.

وهمس، حتى لا يسمعه آدم:

ابنك قطم وسطى.

دخل منعس **أم همام**، أغلق الباب وأخرج، من طاقة بالحائط، فرد خرطوش ملفوفًا بشال أبيض، معمرًا بظرف واحد، وقال **لآدم:**

أقسم بعزة جلال الله؛ لو حد غيرك سألنى؛ كنت طخيته، سيدك عواد حِفِي على المحاكم، ومعرفش يطول منك شعرة.

وحط يد **آدم** الصغيرة على المصحف وقال:

---

[6] قرية تابعة لمدينة طوخ على بُعد كليومترين منها، وبها كليتا الزراعة والطب البيطرى.

احلف ماتسبنيش مهما حصل.

فى الصباح، ألبست **أم همام** التى يناديها "يا مّا"، **آدمَ** الجلبية البلدى والجزمة الأجلسيه والشال الحرير، وأخذه **أبو همام** من يده، إلى حارة القنطرة التى تسدها شجرة أم عيد[7]، وقف أمام بيت كبير بالطين وعروق الخشب، رفس **أبو همام** بابًا ضخمًا، زيق الباب وانفتح على آخره؛ صوتت شوق المقرفصة فى الدهليز؛ لما رأت **أبو همام**؛ فنزل رجل ضخم على الصوات، وقال:

مرحبًا يا حاج.

تعانقا طويلًا، الرجل الضخم و**أبو همام**، نظر الجَد إلى **آدم**، وأشار إلى الرجل:

عمك عبد القادر.

احتضن العم **آدمَ** بقوة وقال:

نورت بيتك.

جلسا فوق المسطبة يدخنان المعسل، على جوزة نحاس صغيرة ببوصة رفيعة، نزلت **حُسنة** زوج العم ترحب بهما، وحلفت:

لازم نتغدى سوا.

بعد الغداء، قال **أبو همام لآدمَ:**

دول أهلك والدار دارك وسكتنا متوهش.

انكسر **أبو همام**، بعدها، بات ينعى حياته، التى فقدتْ مغزاها، فلم يعد له مَنْ يعيش مِن أجله، يخرج يوميًا حافى القدمين بالقميص الفلاحى والصديرى، يعدى الترعة على فلق نخل، يشترى طعمية ورغيفين بشلن، من كتاكت البولاقية، ويقعد على حرف الترعة، يفطر ويشرب من القلة، يدور مع الشمس حيث تدور، ينتظر صديقه الوحيد **رئيس عبد الظاهر**، الذى يجوب القرى والعزب بالعجلة النصر، ينادى بصوته المنغم:

الكحل يا عرب.

ينتهى إلى **أبو همام**؛ يوقظه بحنان قديم، يجلسان معًا، يؤذن الظهر، يذهبان إلى جامع العمرى، يؤم **رئيس عبد الظاهر** الناسَ على كرسى وعكازين، ونظارة طبية مربوطة من المنتصف بقماشة

[7] شجرة توت معمرة مزروعة وسط حوش الدار التى تسد حارة القنطرة.

بيضاء، لكنه، **أبو همام**، لم يقم، صباحَ الموت، حين لسعته الشمس؛ خرجت **أم همام** من الدار؛ لكى توقظه، هزته برفق فانقلب على وجهه.

معذرةً، أننا لم نجد **لأبو همام**، ابن الليل المغوار، ميْتةً أفضل من تلك، الموت تحت الشمس، لكننا ولأسباب تخص **آدم** شخصيًا، سنترك روح **أبو همام** محبوسة فى صدره، لن نستطيع، بحال من الأحوال، أن نسمح لها بالخروج من أنف **أبو همام**، والطلوعِ بسلام إلى بارئها، قبل حضور **آدم**، ليموت **أبو همام**، مرتاحًا، على صدر مَنْ أحب أكثر من نفسه، ابن بنته، عكس المثل الشائع، ربى ابن ابنك، وابن بنتك لأ، مما يجعلنا لا نثق كثيرًا بالأمثال؛ حتى لو كانت شائعة، ابن البنت المحبوب **آدم** لم يبك، لم يستطع البكاء، ظل صامدًا، دموعه متحجرة فى عينيه، صلوا الجِنازة فى جامع العمرى، أحد العمريين المنثورين فى البلاد منذ أيام الفتح العربى، فيما بعد، فى عصر لاحق، ليس بعيدًا جدًا، ستصل هذه المساجد إلى تسعة وتسعين مسجدًا، من دون أى مبالغة، لكنها للأسف لن تجد عددًا كافيًا من العُمّار، رغم بلاغة مكبرات الصوت المدوية، التى تخترق الآذان فى السماوات المفتوحة.

انتهوا من الدفن، ورجع **آدم** كاسف البال، فاقد السند والهمة، انقطعت عزوته، ملأه إحساس بيُتْمٍ فاجع.

حاول **عصفور أبو رضا**، إيقاظ **آدم** الغارق فى الهوس، منذ أول الليل حتى تباشير الصبح، كان **آدم** عائشًا فى حلم من عسل مصفى، لا يمكن إيقاظُه أبدًا أثناء هذا الحلم، ولا فَهم الألفاظ السوريالية التى يهذى بها، مع طول العِشْرة أيقن **عصفور** باليأس، اعتاد أن يترك **آدم** نائمًا، ويتلهى؛ قتلًا لوقت الانتظار، بأشياء أخرى، يشعل النار النائمة، يشرب الشاى، يرص كرسى معسل، أو يتفقد المستشفى حديث البناء، حتى يستيقظ **آدم** من تلقاء نفسه، كأنه قام من موت، يسأله **عصفور** بعفوية وإلحاح، لا يظفر بشىء ذى بال، تجىء ردود **آدم** خجولًا، مائعة، متهربة، لا تشى بشىء، استدرجه **عصفور** مرة، بلؤم فلاحى كهين؛ زلف لسان **آدم** بانتشاء رجولى أفلت زمامه، وقال ما لا يجب أن يُقال؛ فظل طوال النهار يعانى كرشة النفس والاختناق، لا يطيق نفسه، وخناقات لا حصر لها ولا سبب، مع طوب الأرض، بداية من مدير المستشفى؛ وعى **آدم** الدرس جيدًا، فحافظ، مرغمًا، على السر، من دون أن يعرف السبب الحقيقى لذلك، على وجه اليقين.

أحرقت النارُ الكنكة، وطالت طرفَ جلبابه **آدم** الأبيض، حمد الله على أنه لم يحترق، تبسم **عصفور أبو رضا** مطيبًا خاطر **آدم:**

النار متحرقش مؤمن.

ابتسم **آدم**، فى سره، متسائلًا عن حظه من الإيمان، قام متخشبًا لا يستطيع تحريك رجليه، ألمٌ مبرح يُمسك ظهره وأطرافه، ساعده **عصفور أبو رضا** على النهوض، لم يحك له ما حدث من **حواء** ليل الخميس، كَلَمَهُ، فحسب، عن رعب الناس من العفاريت التى تتحرك أمامهم فى التلفزيون، وأن هذا من علامات الساعة، رغم أنف **زنجر وأبو حليمة وعرفات**[8] بتوع المدارس، أعاد على مسامع **آدم** الشريفة، للمرة المليون؛ مستعرضًا قدرته الفذة على الحكى، وإعادة الحكى، بذاكرة فوتوغرافية لا تخطئ أدق التفاصيل، ولا تعدم تشويقًا، ولا تنسى، فى كل سرد جديد للحكاية نفسها، إضافة هنا ونقصًا هناك، لزوم مقتضى الحال، كما تقول البلاغة العربية، التى أتقن **عصفور أبو رضا** أصولها، فى مدرسة السكة الحديد الابتدائية، محاولًا أن يؤخر **آدم** عن البيت، ومباهيًا أنه، **عصفور أبو رضا**، ولا فخر، أقدم معاون بلهارسيا فى البلد، عيَّنهُ وزير الصحة **حامد باشا محمود**[9]، وإنه، **عصفور أبو رضا**، لا الوزير، مَنْ شغل حمار السفاينة، لكن، سبحان مغير الأحوال، الدنيا تغيرت، الناس تغيرت، يتغامزون، من وراء ظهره ويقولون:

من فات قديمه تاه.

مشيرين بخبث أصيل، إلى أنه كان يخدم حرم الباشا **حامد محمود**، الإنجليزية، التى شيد لها فيلّا، لا يجرؤ أحد أن يفكر بالمرور من أمامها، إلا فى الانتخابات، فى زمن لاحق، سوف تتحول الفيلا إلى مركز تراثى للمحافظة، بعد نزاع بين العابد والحوت تحسمه سيدة كانت فاضلة، **عصفور أبو رضا**، همزة الوصل بين **حامد باشا محمود**، النائب الوفدى عن المركز، وأهل السفاينة مسقط رأس السيد الوزير، الذى لم يعرف عنهم شيئًا، إلا ما يريد **عصفور** أن يعرفه، فأنعم، الباشا على **عصفور**، بوظيفة، لم يكن يحلم بها، تمرغ فى خيرها ثلاثة من البنين وثلاث من البنات، ووقف السابع بعناد على الحد الشائك، الفاصل بين النوعين، مكتفيًا بذاته عن الرجال والنساء معًا، ذلك السابع أو تلك السابعة سبَبَ أو سببتْ، لـ**عصفور** صدمة حقيقية تحولت إلى أزمة، بداية من

---

[8] سعيد الفرماوى رسام وصحفى الشهير بزنجر وأسامة أبو حليمة أستاذ الرياضيات والكاتب الإذاعى وكمال عرفات، وهم مؤسسو مكتبة طوخ فى مجلس المدينة فى عهد رئيس مدينة طوخ المستنير المهندس حمدى سيف النصر.

[9] وزير الصحة فى الحكومة الوفدية وفيلاته على الطريق الزراعى بين طوخ وبنها.

اختيار الاسم حتى نوع الملابس، إلى أن تمكن **عصفور أبو رضا**، بعد عناء ومشقة وطول تفكير وحرق كثيرٍ من الدخان، والشاى الثقيل المر، والسهر المضنى، من حسم الموقف، بقدرة فذة على المناورة والذكاء النادر؛ قرر **عصفور أبو رضا** أن يطلق اسمًا على مولوده، من تلك الأسماء الكثيرة التى تطلق على الذكر والأنثى معًا، مثل صفاء، سناء، حمدين، إحسان، نجاح، تيسير، نور، رضا، **رضا** هو الأنسب لمولوده الأخير، من وجهة نظر قاصرة، سنعرف بعد قليل، لماذا هى قاصرة، خوفًا من جرسة محتملة، فالجرسة كلام، لكن الخوف المؤجل إلى أجل غير مسمى، حين يكبر **رضا** ويصل إلى سن الزواج، السن التى تتطلب معرفة النوع؛ لتحديد النوع الآخر، الشريك، هذا الخوف، أتى مبكرًا جدًا على غير توقع، نتيجة لقصر النظر الذى أشرنا إليها، ولا رغبة، حين سأله الناس عن اسم المولود، يرد **عصفور** بانشراح وثقة:

رضا.

يبارك السائلُ، بطيبة ريفية أصيلة، لكنه بعد لحظات ورغمًا عنه، تطفو فى رأسه فكرة السؤال عن نوع المولود، رغم التردد المتأصل من طرح هذا السؤال تحديدًا؛ خوفًا من الاتهام الجاهز، بالحسد والحقد والغيرة، فيسأل السائل بحياء جم هذه المرة:

ولد ولاّ بنت.؟"

لحظتها يتعكر وجه **عصفور** ولا يرد، يتلعثم السائل بالتبعية بعدما شعر أنه انزلق فى مأزق خطير، ووضع نفسه فى مزنق بشع، تهمه تلتصق بقائلها مثل العمل الردى الذى يصاحب فاعله فى القبر بعد انصراف الأهل والمال والولد، وصمة عار لا تُمحى أبد الدهر، يبتسم السائل فى استخزاء ويقول:

اللى جاب لك يخلى لك يا أبو رضا يا غالى.

وهكذا نسى الناس **عصفور**، الدكتور **عصفور**، أقدم معاون بلهارسيا، خدام الهانم، كلب السراية، وكل ألقابه السابقة، الشهيرة واللاحقة، أصبح، عن جدارة، ومن دون منازع، **عصفور أبو رضا.**

لم يفهم **آدم** كثيرًا مما قال **عصفور أبو رضا**، بعد ليلة من التوجس، بات منهكًا بما يكفى، فلم يلحظ، فى طريقه إلى البيت، عيون الناس المتطلعة إليه بإشفاق واستغراب، بعض العيون بدا شامتًا، متشفيًا، لم يجد **حواء** فى الدهليز؛ فلعبت كل الفئران الغبية فى عبه، توجه **آدم** مباشرة إلى حجرة النوم، كانت **حواء** هناك، مستغرقة فى نوم عميق أو هكذا تبدو، لاحظ **آدم** عباءة **جاه**

الرسول المنسوجة بيد زوجته **أم الخير الكنوزية**، من الكتان الأبيض وخيوط المحبة؛ مات كمدًا، انقبض قلبُه، صدَق حدسَه، رأى بعينىّ رأسه ما كان يرى بعينىّ خياله، فهم المغزى العميقَ، غير المريح للنظرات المتوارية خلف الابتسامات المطلة من العيون المنثورة على الطريق، والمحاولات المفضوحة التى أرهقت **عصفور أبو رضا** لإثنائه، أو على الأقل تأخيره عن البيت، بإعادة حكاياته الأثيرة عن أيام عزه الغابر، فى كنف الهانم الإنجليزية الطيبة، التى تعرضت للاغتصاب والسرقة من قِبل عساكر الحراسة، ورغم ذلك، وربما بسبب طيبة قلبها الكبير، عندما رأت بالصدفة، فلاحًا يضرب حماره، أمام السراية، ضربت الفلاح بالكرباج، وقال له:

دا زيك.

قال **عصفور** وضحك؛ ليُضحِكَ **آدمَ**، لكن **آدم** المنكوب لم يُصبْ بعدوى الضحك، **آدم** المثقل القلب لم يستطع حتى مجرد الابتسام، ولو من باب المجاملة.

اقترب **آدم** بحذر من **حواء** النائمة فى العسل، مسد شعرها بيد الرحمة، قبّلها فوق جبينها بحنان أبوى، استيقظت **حواء** مرعوبة، كأنها آتية من عالم آخر، أو انتُزِعتْ من حلم، فتحتْ عينيها مذعورة، نظرتْ إلى **آدم** مندهشة، تعرفته بصعوبة بالغة، نفرت منه:

تانى.. انت مبتتهدش.

وعادت إلى نومها، إلى عالمها الحقيقى، كأن الشمس لم تحرق وجه النهار، جلس **آدم** إلى جوار **حواء** على حافة السرير، عصر رأسه بين كفيه؛ مُحرَجًا، مغمومًا، مادتْ الأرض من تحته، أحس بفراغ هائل، روح من الضياع، انزلق إلى داخله متورمًا بتجليات السنوات العجاف التى قضاها تعسًا، من دون أن يُعطى فرصة واحدة، ولو صغيرة؛ ليعبر عن نفسه، كان محكومًا بصورته التى يعرفها الناس، أو التى يريد هو أن يعرفوها عنه، ومحطمًا بما يكفى لإشعال حرائق بيتية لا يخمد أوارها، لكنه اختار التنفيس عن كربه بالسعى المُجِهد، من أجل التفريغ الفورى لشحنات الكبت الداخلى المزمن، يتبرأ **آدم** من أخطائه الفكرية، التخيلية بالأساس؛ حيلةً للعيش فى سلام، أولًا بأول، يطردها كخبث بعيدًا عن ذاته؛ لأنه لم يكن قادرًا، حسب تركيبة نفسية معقدة ومنطوية، غير قابلة للتغيير، على ارتكاب الأخطاء الملموسة، أو الخطايا الصغيرة، التى ترتكبها الأيدى والأقدام وبقية الأعضاء الأخرى، عدا اللسان طبعًا، فهو يتكلم طوال الوقت بسبب، ومن دون سبب؛ ليتخلص من التوتر، والطاقات السلبية الزائدة، التى لا معنى لها ولا حاجة إليها، لأنه؛ إن لم يتخلص منها

ويطردها خارج جسمه، مثل سائل الحياة تمامًا، تسبب ألمًا وضيقًا حادًا وسدة نفس، غير مفهومة ولا مبررة، وعزوفًا عن الحياة، يتبدد كل ذلك مع أول لقاء حميمى بـ**حواء**، فى حالاتها فائقة الندرة حين تعطى بسخاء، فيهطل الحب فى شقوق النفس العطشى؛ فتُزهر الروح.

هزّ **آدمُ حواءَ** بلطف، قامت، مكرهةً، تستجمع أشلاءها بعد معركة ليلية غير مرئية، مشت **حواء** متكاسلة إلى المطبخ تعد الإفطار، لحقها **آدم** الممسوس بشوق ليلة كابوسية، يرغب أن يُفرغ احتقانات أعصابه المستَفَزَة، احتضنها من الخلف، عضّ حلمة أذنها بأسنان الرغبة الجامحة، التهم خديها بشفتيه، جفلت منه، تأففت، كان الوقت قد فات؛ لم يستطع **آدم** التحكم فى مجرى النهر؛ استسلمتْ **حواء** مرغمة، من دون روح، انتهى **آدم** مرتبكًا يسحقه الخزى، كأنما ارتكب إثمًا.

لم يكن مفيدًا قط، أو ذا جدوى، أو لم تنتبه **حواء**، بما يكفى، إلى أن هذا الحضور الغرائبى أو الهلامى، الشيطانى بالأساس، ينبع من تلافيف مخها، وينبثق فى أحلامها المرتعشة من فرط اللذة، كانت ضعيفة، ضعيفة اليقين، مثل معظم النساء خاويات العقول، تحب ضعفها، ضعف الأنثى، الذى يمثل أوج قوتها الناعمة، ذلك تحديدًا، وبشكل مبَاشر، هو ما يجعلها فريسة سهلة، على الدوام، لأحدهم، سواء أكان رجلا أم امرأة، يلعبون بها بقسوة صبيانية مفعمة بالبلاهة، يمكن أن نفهم ذلك بسهولة، أن تستسلم **حواء** للإغواء، بل تستمع به حسب طبيعة امرأة وحيدة، ينشغل عنها زوجها معظم الليالى وينام فى العمل، الإغواء الشيطانى المغرِق فى أحلام محرمة بل ملعونة، تتبخر مع أول رسل النور لصباح، من صباحات معتادة، ومع أول لمسة أو حضور **لآدم**، يرتعد شيطانُها العفى، المستخفى فى إهابها الناعم، الذى فى أوقات أخرى، ليس فيها **آدم**، ربما يعذبها بانتهاكات جسدية فاحشة الإرهاق، يكمن فى حال بياتٍ مخادع؛ لدرجة أنها تحس بخفة طائر فُتح له باب القفص فجأة، أو سجين فُك قيده توًا، وبرغبة قوية فى الراحة، تشعر بحاجة شديدة إلى النوم المطمئن، من دون خوف أو ترقب أو تحرشات أيدٍ خفية، ذات أصابع كلبية مشعرة سوداء، غالبًا سوداء، لا تُرى، وعيون قطط فسفورية مرعبة تبرق فى الظلام، الشىء غير المفهوم على الإطلاق، أو على الأقل لا يُفهم بسهولة، من جانبنا على الأقل، هو عدم تجاوبها مع محاولات **آدم** الدءوب للتقرب منها، حتى شيدت بينهما جبالا من صخور الصد المنيعة، تحول **آدم** إزاءها، أو بسببها إلى حال من النفور الدائم، والإحباط العاطفى، والاحتياج الجسدى غير المُلَبَى، غير المسيطر بإحكام، حتى لو غلى دمه فى جسده، وتحرق كقِدْرٍ فوق النار، يهتز بعنف تحت سعير الشهوة، تدفع **آدم**،

والحال هذه، إلى الإذعان والتحايل بأفكار، وربما بأفعال مراهق لا تليق أبدًا بسنه ولا بمركزه الطبى الفذ فى البلد، الدكتور الذى يحمل الشنطة الخشبية المحملة بكل الأدوات اللازمة، للطهور والحلاقة ومداوة الجروح المستعصية، والمُحَمل أيضًا بأسرار الأسر والعائلات الريفية، سواء التى من أصل البلد، **حواش، العرجان، حَلَيمةْ، سابق، البطح، قدوس، يس، والعويشة**[10]، أو تلك التى وفدت إلى طوخ مجول لكثرة التجوال فيها، أو طوخ الملق لوقوعها وسط مساحات زراعية شاسعة، أيًا كان الاسم المدون فى بطون التاريخ القريب والبعيد، وسبب التسمية، وانسجمت مع هوائها؛ فاستقرت بها، وتملكت مساحات واسعة بوضع اليد، وتقنين وضع اليد، كان منهم العُمد، والأعيان، عائلات: **فخر، نجم، سعد.**

شبك **آدم** كفيه خلف رأسه المثقل، وهو ما زال راقدًا على ظهره، فوق سرير بيته البارد، سلط عينيه إلى السقف، حاول النوم مرات عديدة؛ عصفت برأسه صافرات مثل دوى النحل، يعانى اضطرابًا خاصًا، لا يستطيع **آدم** أن يتفهمه على نحو واضح، ولا نحن أيضًا، فضلًا عن أن يبوح به لأحد، يعانى شعورًا دفينًا بأن حواء تكرهه، أو، على الأقل، لا تحبه، لم يستطع **آدم** أن يحسم الأمر قط، وحتى لا يصف نفسه بالمتربص، أو بالمتشكك، أو نَصِفُهُ نحن بذلك، أو بما هو أبشع، كان يمرر، من دون أن يُشعر **حواءَ**، أنه لاحظ أو سمع، تعليقاتٍ، من جانبها، تبدو بسيطة وعفوية فى ظاهرها، لكنها تنهش أعماق **آدم**، مثل سُمٍ ناقع يشل أعضاءه، يتغاضى **آدم** عن تعليقات **حواء** المُحبِطة، على شكله، أو هندامه، أو رائحة فمه الكريهة، من وجهة نظرها، أثناء القبلات الشرعية، التى تتلقاها بنفور يصل حد الاشمئزاز، مُحَاوِلةً إبعاد فمها عن فمه، يتأذى **آدم** بطريقة مهذبة، يقاوم شعورًا قاتلًا بالمهانة؛ ينفى نفسه، إراديًا، فى أحلام يقظة طويلة كليل الهجر، يفكر فى نساء، يحلم بنساء، يخلق نساء، غارقات فى الوسن، يعشن بقوة الغرائز، يزرنه فى أحلام لاهبة، على نسق الاشتهاء البدائى لرجل الغابة، يبحث عن امرأة القرار، امرأة ليست مسكونة بشياطين الوهم، امرأة تسكنه، البؤس وحده، بؤس النفس يدفع **آدم** أن يرتكب أفعالا انتحارية، يدخن بشراهة مثلًا، من دون أن يرغب أو يحتاج، الأسوأ أن تفعل أشياء لا ترغبها ولا تحتاجها؛ لمجرد قتل الوقت، أو النفس، أو العمر غير المحسوب بعدد الساعات والأيام والأسابيع والشهور والسنين منذ الميلاد حتى الموت فحسب، بل بعمق لحظات السعادة المارقة، وأيام الشقاء الدهرية، لا ينام **آدم** تقريبًا، تدمره

[10] العائلات المؤسسة.

المنامات المتقطعة، ليلا أو نهارًا بمطاردات شيطانية مُلِحة، تعلق فى مخيلته بهيئة نساء عرفهن فى طفولته أو مراهقته، تفتحت شهوته عليهن من دون أن يطالهن فتحولن، بفعل الحرمان والزمن، إلى أيقونات للشهوة، يتمثل بهن شيطانه، يرتمين فى أحضان **آدم** الجائعة، يشتبكن معه فى معارك متصالبة الأيدى والأذرع والسيقان، يكون هو الملاح، هو البحر، هو القارب، هو المجداف، يغرقهن بسوائله الدافقة، لكن **آدم** حين يستيقظ، يتذكر بالصدفة، وبصورة ضبابية تمامًا ومشوشة، هذا الحلم أو ذاك، يبحث، متقززًا، عن البلل فى ملابسه، لا يجد أى أثر، فيتشاءم من حال الجفاف الدائم، دلالةً على أنه بدأ العد التنازلى إلى فقد الرجولة المخزى؛ بالنسبة **لآدم**، لم تكن الأمور على ما يُرام قط، كانت **حواء** زوجة على ما تُفرج، رغم أنهما تزوجا عن حب، أو بسبب أنه حب متوهج بلهب الشهوة وانعدام الخبرة، مثل جائع فى صحراء، يرى كلَ الأطعمة شهية، وكلَ النساء جميلات، رغم أن **آدم** كان قد أدرك مبكرًا، أن كلهن حواء بالضرورة، وأن تحت المظهر الخارجى تستوى الملكة والخادمة، كلهن يتشاركن ذلك الإفراز الداخلى العميق للغدد الصماء، لم تعد الحكاية ممتعة أو مشتهاة؛ لكنه يفعل مطحونًا بضروس الاحتياج العاطفى غير المُلبى، ثم يندم، حيث لا ينفع الندم، ورغم أنه كان أبعد ما يكون عن السخرية، إذ يغلفه، أو يغلف تصرفاته، الظاهرة على الأقل، ورع دينى ظاهر، يمنعه بكل قوة وحسم من التندر على أحد، أى أحد، ولو من باب الدعابة؛ لذا يسخر **آدم** من نفسه كثيرًا؛ إمعانًا فى الأمان، بكلمات لاذعة، وأحيانًا بالتبسم أثناء عمله حلاقًا فى النهار، وحارسًا فى الليل، حارس لا يحرس شيئًا، سوى حجرات البوص المجدول، ومحاليل الراوند والشيح والطرطير، والسلفا التى يكتبها الأطباء الرسميون لكل المرضى، من دون استثناء، من وجع البطن إلى وجع القلب، قال **آدم** لنفسه فى سخرية حادة: **حارس الوهم لا يقدر على حراسة زوجته.**

كم تمنى **آدم** أن تنتهى القصة عند هذا الحد، يطلقها، وينتهى الأمر، لم يستطع، لا تتركه يفعل أبدًا، وحين غفل عنها أخذت طفله الصغير واختفت، بعد أسبوعين من الضنى عثروا عليها فى الخانكة، أعطوها **لآدم** بعد أن قدم كلَ الضمانات والشهادات الموثقة التى تثبت أنه زوجها، وأنها زوجته، وأن الطفل الذى لم يذكروه قط، ولو عن طريق الخطأ، ابنهما، الطفل الذى كان معها، وفقدته إلى الأبد، وإلى الأبد سيظل غضة فى حلق **آدم**، رغم أنه لن يفصح أبدًا؛ لعدم الجدوى وليس النسيان، فلا أحد ينسى ضناه، حتى **حواء** سوف يطاردها فى أحلامٍ لن تتحقق، وستبحث عنه بشغف وحسرة، هائمة على وجهها مثل مجانين السكك، رجعا معًا بفجيعة مُرة، ستلازمهما

حتى نهاية العمر، **حواء** مسكينة، ساهمة النظرات، لا ذنب لها، روح **آدم** تذهب معها، فى كل اختفاء، تنتابه أحاسيس متناقضة بين الحب المفرط والشفقة، المشاعر الإنسانية البحتة، لم يستطع **آدم** مهما كان متحاملًا، أن يُحَمِل **حواء** وزرَ ما لم تفعل، فهى، بأى حال وتحت أى توصيف، أمٌ، ولا يمكن أن تفرّط فى ضناها أبدًا، إلا مرغمة أو تحت ضغط رسل الخفاء، أو فقدان الإرادة التامة؛ لم يستطع **آدم** أن يقسو عليها، لكنه، ورغمًا عنه أيضًا، لم يستطع أن يسامحها تمامًا، ظل فى نفسه شىء أكبر وأقوى من إرادته التسامحية، أو عاطفته الدينية الجياشة التى تهون عليه المصائب وتزين له الرضا، الآن، وبعد كل هذه السنوات، وبعد كل محاولات العلاج، لا يستطيع عِشرتها، اعترف **آدم**، بينه وبين نفسه، على استحياء وسوف يفعل، مضطرًا، فى المستقبل القريب والبعيد، أشياءَ لا يفهمها، ولا يقتنع بها، مكرهًا يركب آخر، أو ما يظن، أنه آخر قوارب النجاة، عندما دخل عليها مستشفى الخانكة لم يتعرفها من الوهلة الأولى، بسبب طبقة الوسخ التى تغطى يديها ورجليها وهدومها الممزقة، فوق طبقة الجلد الناشف المسود، ظل **آدم** يحممها ثلاث ساعات بالصابون والماء الدافئ، وكوز كامل من ليف النخيل، حتى يتخلص من آثار هذه الغيبة الطويلة، على غير العادة، كان معتادًا، بشكل ما، أن تفاجئه حواء باختفاء مباغت وظهور سريع، تعود وحدها أو يجدها فى الجوار، عند الساقية المهجورة، أو حول الكنيسة أو الجامع، هذه المرة كانت مختلفة فى البعدين الزمانى والمكانى، وأكثر فقدًا وحسرة، كان مشلول الفكر؛ لا يدرى أيفرح لرجوعها، أم يحزن لفقد الوليد، يحاول أن يفهم الرسالة، إن كان ثمة رسالة، سنوات من العذاب، وسنوات من الضنك، وسنوات من الضنى، **آدم** يُصَبِر نفسه، من خوف مستتر فى تكوينه، أو لنعيم أخروى مرجو بشدة وقناعة هى عين اليقين، أحيانًا قليلة جدًا تُفلت من **آدم** الأمور، يصير إلى الأسوأ، يفقد البوصلة، تتقاذفه أمواج الضياع من غير رحمة، ترفعه عاليًا إلى ذُرى الحُلم، وتُلقى به بعنف فى أحضان مشاعر مجهولة، متناقضة، ترميه فى متاهات العلاج الميرى، خلف طابور طويل من المرض الساعى إلى الشفاء، عندما حان دور **حواء** ضاعت الورقة التى تحمل الرقم، التى سلمها **آدم** لإحدى ملائكة الرحمة، التى طالبته بالورقة حتى لا يضيع دوره؛ حيث إنها لم تأخذ الورقة أصلًا، قالت بجفاء وتعالٍ:

شوف ضيعتها فين.

وأعطته ظهرها العريض، تتابع سيل المرضى غير المنقطع، صار لزامًا على **آدم** البحثُ عن الورقة، أو إثبات أنه دفع الكشف، أخذ يدور فى سراديب المستشفى، ككلب يتشمم الجدران الرطبة؛ بحثًا عن نسيرة لحم فى كومة عظم مهملة، يتسول كل البلاطى البيضاء التى يصادفها، لم يبلّ ريقه أحد، ولو بكلمة على سبيل الإحسان، دار **آدم** حول نفسه مرات، فى متاهات المبانى الحجرية، ليعود إلى نقطة البداية نفسها، يجر حواء خلفه كطفل منغولى تائه، تجر ذيول خيبتها ورعبها.

سقطا معًا، **آدم وحواء**، من شدة الإعياء، فى اللحظة نفسها، أمام الممرضة التى ارتاعت من منظرهما، فتشتْ جيوبها بدقة تُحسد عليها، أخرجت الورقة من جيب سحرى تحت البلطو الأبيض، اعتذرت بوقاحة غير معتادة من ملائكة الرحمة، أبدت خجلًا من نفسها، لن يراه **آدم**، الذى مضى حزينًا، كافرًا، إلى الأبد، بالطب الرسمى، باحثًا عن مخارج أخرى، ولو عبر خيال جامح موغل فى القِدم، لاستحضار مشاعر نبيلة تساعده على المواصلة بتصميم وعزم، حيث الرؤية عن بُعد تجعل الوجوه جميلة، مثل الذكريات الشفافة؛ لأنها تأتى غالبًا عبر مصافى الزمن الضيقة، مثلما تنظر إلى وجه امرأة فضائية، خضعت لآلاف العمليات المعقدة من الفلترة الإلكترونية، ذلك دأب **آدم** عندما يفقد بريق الحاضر، ويصل، من دون إرادة، ولا قدرة على المنع، إلى حالات اختناق نفسى ومعنوى قاتلة؛ تُفقد الحياة معناها الأسمى عن كل التعريفات والكلمات المتحذلقة، التى تحاول وصف حال رجل ممسوس، هى بطبيعتها الغيبية عصية على الوصف أو التأطير، ليس أمام مَنْ يتصدى لمثل هذه الحال إلا التسليم المطلق أو الرفض المطلق؛ رغم بلايين الحالات الشاذة، والأفعال التى يراها الناس أو تُجرى عليهم، ولا تجد تفسيرًا منطقيًا، ولا يمكن رفضُها فى الوقت نفسه، خاصة مع ما يصاحبها من الخوف، والقشعريرة البدائية، والتشوهات النفسية المرعبة، والتهويل الشعبى، والتجاهل الرسمى، لم تنفعه بشىء إفادات الأطباء، سواء الرسميون بمَنْ فيهم الذين يعمل معهم فى المستشفى الميرى، أو الذين تَحمّل عبء اصطحاب **حواء**، نصف ميْتة أحيانًا، إلى عياداتهم الخاصة، المرهقة ماديًا ومعنويًا، النتائج كلها واحدة تقريبا، تقول الحقيقة الخالدة، الناصعة نفسها، **حواء** لا تعانى أى مرض عضوى، مع ملء الروشتة كتابة لا تقرأ، ببعض المهدئات والمقويات؛ لتحليل ثمن الكشف وليرتاح المريض نفسيًا، إلا أن **آدم** نجا، من دون شك، بحكم أن يده فى المطبخ، مطبخ الطب الأميرى، وطباخ السم لا يتذوقه دائمًا، من السلفا التى يكتبها الأطباء الحكوميون لكل المرضى، من دون استثناء، وبرغم ذلك لم يدرك **آدم** قط، بالحصافة

الكافية أو الكيفية المفترضة، الحدَ الفاصل بين الحالات الانفعالية والأخرى الافتعالية، ومتى تكون **حواء** زوجته، هى **حواء** زوجته، ومتى تكون شيئًا آخر، شيئًا مجهولًا مرعبًا، يصاب **آدم**، بالتراكم، بحالات من البكم الروحى الثقيل، يصعب عليه التنفس، يصير الهواء كثيفًا لزجًا، والموت قاب قوسين أو أدنى، يتفكر **آدم**؛ معزيًا نفسه، اللى يشوف بلاوى الناس تهون عليه بلوته:

أشك.

قال **آدم** محرجًا أن يتجاوز فى حق القدر الرحيم، ذلك أيضًا لا يغير من الواقع شيئًا، فالبلوى هى البلوى، هى حيلة فحسب لتحسين الواقع النفسى، بافتراض أن هناك، فى مكان ما على سطح الكرة الأرضية، حبذا لو كان جارًا أو قريبًا، مَنْ يفوقنا فى البلاء، فنستريح بنوع من الرضا أو الشماتة، يغذى لدينا إحساسًا وهميًا بالتفوق، أو السرور الخفى فى هؤلاء، الذين هم، بشكل ما، إخوتنا، إن لم يكونوا إخوة من العصب، إخوة اللحم والدم، فعلى الأقل، هم إخوة فى الإنسانية، أو زملاؤنا فى الحياة.

استعصت مشكلة **آدم** المعقدة بطبيعتها على كل الحلول، الانسحاب من الحياة، ترويض الحياة، الحياة الداخلية التى لم تكن منسجمة قط، الحياة التى حولته إلى بركان يغلى، طوال الوقت، تحت سطح من الهدوء الخادع، ما سيحدث **لآدم** مستقبلًا، لم يكن منتظرًا قط؛ بما أن **آدم** لا يعرف شيئًا عن أمراض الجسم، فضلًا عن أمراض النفس أو الروح، فقد سلم، طوعًا، إرادته المسلوبة أصلًا، يتخبط تحت سطوة خوف التسلط الإلهى، بسبب ذنوب، ربما لا يعرف **آدم** نفسه، متى ولا كيف ولا أين ارتكبها، لكنه يعلم يقينًا أن المصائب تنزل بسبب الذنوب، ومع ذلك لن ينفعه الآن، أن يستغرق فى البحث عن ذنوب، يظن هو أنه ارتكبها، عادة يأتى البحث بالسلب؛ لأن الإنسان يرى القشة فى عين أخيه، ولا يرى الخشبة فى عين نفسه، فليبحث **آدم**، أولًا، مُؤجِلًا البحثَ، إلى حين، عن ذنوب لن يجدها أبدًا؛ لأنه لا يمتلك كشفًا بالذنوب، أو، وهو الغالب، لا أحد يُخَطِئ نفسه، ليبحث عن طريقة يُخرج بها **حواء** من هذه الورطة المفجعة، حتى لو بارتكاب بعض الذنوب الصغيرة، اللمم المخصوص بالمغفرة، الذى ينزل بسهولة من مصفاة الحساب، فأين يبحث، هل يذهب لأحدهم، أحد هؤلاء الدراويش أو السحرة، بعدما عمّ الخراب وانسحب على كل المرافق الحيوية، وتحولت المستشفيات، أو كادت، إلى مواخير ليلية، حسبما كتب **عصفور أبو رضا**، فى إحدى بردياته النادرة، إلى وزير صحةٍ ما، فى بلدٍ ما، غير هذا البلد الطيب بالتاكيد:

مستشفى الصدر وبيها مبنى الداعرات، ومفتش الصحة أهو نايم كأنه فى بير، يا عم يا وزير الصحة ارحم مرضاك، وشوف عيوب المصحة، ربنا وياك.

كتب **عصفور أبو رضا** فحسب، لم يستطع أن يجهر بنوياه هذه؛ تحسبًا لما يمكن أن يحدث، وما لا تُحمد عقباه.

فك **آدم** يديه المتشابكتين خلف رأسه، طقطق رقبته المتيبسة، نزل من فوق السرير، ارتدى الهدوم المتاحة تحت يده، بدا **آدم** ذاهلًا لدرجة أنه نسى الاغتسال، ربما لإحساسه الدفين، أنه لم يفعل ما يستوجب الغُسل، عاش اللقاء الحوائى من الخارج، تتنازعه أحاسيس متضاربة، الرهبة والخوف، الترقب والأمل، خرج مفتونًا بالسر الذى لم يعرفه من أحد، عرفه بقرون استشعار مهنية، نادرًا ما تخطئ، يدور فى البلد مثل كلبة محضية، من باب إلى باب، مقهورًا، ليس لأجل ما حدث، من **حواء**، أو لـ**حواء**، أو على **حواء** فحسب، رغم بشاعته، فقد كان مُتوقعًا أن يحدث، بل يحدث ما هو أسوأ من ذلك، مع أخذنا فى الاعتبار ملايين الحالات المشابهة فى طول البلاد وعرضها، ليس فى الريف فحسب، بل فى الطبقات العليا من المجتمع، التى تُسمى الراقية، نجد نساء كثيرات يفعلن الشىء نفسه، يكررن الاختفاء والظهور، تحت مسميات أخرى أكثر حداثة وتقنعًا، مثل أمراض النفس ذات الأسماء الغريبة العصية على الفهم، بل النطق أصلًا، كان خجلًا من مواجهة الناس، السمعة هى كل شىء، رأس المال، أعز ما يملك إنسان القرية، كل همِّ آدم أن يطفئ الشرر قبل أن تستعر النار.

انطلق **آدم** إلى فضاء البلد المروع وسط الزراعات الكثيفة، هروبًا من الوجوه والعيون، ومع ذلك، لم يَسْلم، **آدم** ولا **حواء**، من العين؛ لأنه، كما نعرف جميعًا، ما خلا جسد من حسد، حسدوهما، فى البدء، على أشياء هى بطبيعتها تافهة، لا تستحق الذكر، فضلًا عن الحسد، ثم لم يسلما من الألسنة الجارحة للجارات على الأخص، عادة ريفية متأصلة لملء أوقات فراغ لانهائية، بين عملين أو أثناء تأدية الأعمال، ولسد فراغ الأدمغة الواسع، وأيضًا، وهذا هو الأهم، للإحساس بالتفوق، وأننا أحسن من غيرنا، يترصدنه فى المشاوير العلاجية الكثيرة، التى تأتى، غالبًا، من دون فائدة، و**حواء** معلقة بذراع **آدم**، بيدٍ خطافية ملقاة كهلبٍ على جذع مركب، يجرها فى حزن، كن يقابلنه كثيرًا، تلك النسوة، بعضهن مازلن بناتٍ أبكارًا، بحسرة، قبل أن تُعرف الحكاية، وتعمّ الجرسة أنحاء البلد النائم على فضائح العباد، كل منهن تظن أنهما، **آدم وحواء**، يذهبان للفسحة فى مصر أم

الدنيا، فتأكلهن الغيرة متمنياتٍ، كل منهن على حدة، من كل قلبها، أن تكون هى، وليست **حواء**، مَنْ تتعلق بذراع هذا الرجل، **آدم**، وتلتصق به كبرص فى حائط، تتمنى، فى اللحظة نفسها، أن تزول **حواء**، تموت حتى، لكنهن، بعد أن عرفن السر، بعد فضيحة الخميس التى فاقت عفاريت التلفزيون، على رؤوس الأشهاد، حتى الأطفال الرضع تركوا صدور أمهاتهم العامرة، ورفعوا عيونهم البريئة، وتطلعوا إلى **حواء** المضيئة فى الظلام، تغيرت نظراتهن، يمصمصن الشفاه، ربما يعضضنها، ليس حسرة أو غيظًا هذه المرة، بل تشفيًا خالصًا مبطنًا بفرحة:

تستاهل.

تحولت النظرات إلى نوع من الشفقة الخالصة الرحيمة، بعدما ساءت الحال وانتهت إلى طريق مسدودة، بل وصل الأمر إلى تقديم عروض للمساعدة، بعضها لم يكن خالصًا لوجه الله، وبعضها لم يخلُ من أغراض نفسية وحسية فظة، غير ملائمة على الإطلاق، لم يعرف **آدم** كيف يتخلص منها، خاصة الشائعات الدوارة والغليان البركانى لسيرته فى أفواه الناس، يتوقف دائمًا وأبدًا قبل أن يصل إلى أذنيه، فيكون كالأطرش فى الزفة، وإذا تجرأ وسأل أحدَهم، حتى أكثر المقربين إليه، يرد أحدُهم هذا، بعفوية مُجَرَبة، بلؤم فلاحى أصيل، بأنه لا يعرف ويأخذ **آدم** المسكين، بلباقة، إلى الضفة الأخرى من النهر.

صلى **آدم** الظهر، كالعادة، خلف الشيخ **جاه الرسول النوبى**، فى جامع العمرى، من دون أن يتذكر مطلقًا موضوع الجنابة التى تبطل الصلاة، خرج مكتئبًا، بعكس فِعل الصلاة فى النفس، يتمشى بخطوات بليدة، وسط مساحات شاسعة من الزراعات والأحراش، بعيدًا عن البيوت الطينية المتفرقة، التى تشكل بلدًا، فى أول الخلق، لعائلات مُؤَسِسة، يعرفون بعضهم بعضًا حتى الجَد السابع، يتوارى **آدم** من الوجوه والعيون، هائمًا على وجهه، يكابد ذل الفضيحة، ينشد الستر والخلاص، يريد أن يتخلى عن نفسه، لكنه لا يعرف كيف، ولأنه لا يعرف روح الأسماء، ولا يعرف أن اسم الإنسان هو قدره، فإن استطاع تغيير اسمه؛ يمكنه أن يتجنب، حتى أفظع المصائر، لم يخطر ببال **آدم** قط، أن يفعل كما فعل الحبر الحلبى، وكان أُصيب بمرض عضال، ولمح ملكَ الموت كامنًا بجوار فراشه، فقرر أن يعالج الأمر بنفسه، بعدما عجز الأطباء عن إنقاذ روحه، قام الحبر بتغيير اسمه، وأعلن ذلك على الملأ، انطلت الخُدعة على ملك الموت وغادر الحجرة، وعاش الحبر عمرًا مديدًا.

انطلق **آدم** مدفوعًا إلى أكثر الوسائل بدائية ورعونة، تمدد فوق قضبان قطار الدلتا[11]، المحمل بالزلط والرمل والبهائم، دفعه روح يأس مسيطر إلى موت بطىء؛ ليتفرق دمه فى قرى المركز التسع والأربعين، المقيدة رسميًا فى دفاتر الحكم المحلى المهترئة، ولا يعرفون له طريق جُرة، لكن **آدم** جَبُنَ فى اللحظة الأخيرة، عجز عن التخلص من العبء الإجبارى المسمى حياة، الله وحده أعلم بالنيات، ولكل امرئٍ ما نوى، نحن لم نشق عن صدر **آدم**، أو نفتح دماغه لنعرف ما فيه، وسبب تغيير النية فى اللحظة الفاصلة، لحظة اقتراب القطار من جسد **آدم** الممدد فوق القضبان، خوفًا من الموت، أم شفقة على **حواء** التى تركها وحيدة، تحمل عار موته الدرامى، أم، فى لفتة نبيلة لا تفوت على آدم الفَطِن، رحمةً بسائق القطار، ذلك القاتل رغم أنفه، المنكوب بعقد نفسية لا ذنب له فيها، أم، وهذا أقرب الاحتمالات المرجحة، حسب طبيعة **آدم** المتدينة، الخوف المتأصل أن يُبعث يوم القيامة، ممزقًا نسائرَ صغيرة لا تُرى، مهروسة تحت عجلات القطار، مثل الذى يبعث وهو يتردى من الجبل الذى انتحر من فوقه، أو مَنْ يطعن نفسه بحديدة، مهما كانت الأسباب الظاهرة أو الخفية؛ فإن النتيجة واحدة ومناسبة تمامًا لإكمال الرواية، وهى أن **آدم**؛ بحيلة نفسية بارعة، الرضا يُهَوِن كل صعب، كذلك الخنوع، لحق بالعربة الأخيرة بالقطار، الذى يذرع الطرق إلى البنادر المجاورة، بنها وشبين والقناطر، فى دورات بندولية، نائمًا، فوق سرير من قش الأرز المفروش فى أرضية العربة، لتنام عليه البهائم، بعد يوم وليلة، دورة كاملة، استيقظ، فى المكان نفسه، اتجه إلى المحطة، ارتقى الدرجات الثلاث إلى رصيف الانتظار، يستظل بأشجار السنديان العملاقة، تحت الجمالون الإنجليزى المعشق، يشاكس **دنانة** القصير داخل حجرة التذاكر الضيقة:

دخلت هنا إزاى.

يرد **دنانة** ضاحكًا:

من الشباك يا دك.

يضحك **آدم** رغمًا عنه، يعود مواجهًا سور المحلج القبلى والشونة المزدحمة بعربات الكارو والجِمال، ووكلاء القطن والقبانى والعربجية والشيالين، والأنفار الموسميين الذين يجلبهم **عبد الفتاح الأسيوطى**، من أقصى الصعيد، يخرجون من المحلج ساعة الغداء مثل جراد منتشر، يتجمعون فى الشونة، يفردون صُرر الأكل، يأكلون العيش والجبن والبصل والمش، يضحكون ويلعبون، أكل **آدم**

[11] قطار يعمل بالفحم.

معهم من دون عزومة، يتعزى بمصافحة وجوههم الطيبة، يتوه وسطهم بعض الوقت، ثم يرجع من شارع الشهيد **أحمد عبد العزيز** إلى دكان **محمد سكسفون**، حلاق الباشا **حامد محمود** قبل الثورة، يقول **آدم**، من دون تفكير:

مساء الخير يا حلاق الباشا يا عترة.

يرد **محمد سكسفون** المنهمك فى ذقن المعلم **فتلة**، أشهر عسكرى سوارى، بأدب واحترام:

مساء الخير يا باشا يا ابن الباشا.

يكلم صورة **عبد الناصر** المعلقة فى وجه الزبائن بتبجيل زائد:

يا سلام عليك يا بو خالد، يا منور البرين.

يصبر **سكسفون** على مضض حتى ينتهى من المعلم **فتلة**، الذى يخرج من دون أن يدفع الحساب؛ فينظر **سكسفون** إلى الصورة المصلوبة على الحائط، بحقد دفين، يقول متشفيًا:

ديتك موس بتلاتة أبيض، رفعت ناس ووطت ناس، حامد باشا محمود يسيب الوزارة والحوت يركب البلد، من حزب مصر، للحزب الواطى يا قلبى لا تحزن.

هجم الأفندية، **أسامة أبو حليمة، كمال عرفات، سعيد الفرماوى الشهير بزنجر**، الذى غطى حيطان البلد برسومه الساخرة، يشاكسون **سكسفون**، بصخب:

مساء الخير يا سَكسَ.

يرد عليهم **سكسفون** بقرف ظاهر:

مساء الخير يا روح أمك.

الهذيان هى الكلمة الأوقع والأفظع أيضًا فى حالتنا هذه، الكلمة التى يمكن أن تكتب فيها مجلدات ضخمة لن يقرأها أحد، لكننا نكتفى، كالعادة بكتابة ما نحتاجه بالضبط، أو ما نتصور أنه يخدم العمل ولا يشوش على القارئ، وهو أن حال الهذيان التى وصل إليها **آدم** جعلته يتخبط فى أفكاره، كأثر ثانوى من آثار انعدام النوم تقريبًا، صار يكلم نفسه بكلام، هو نفسه، لا يفهمه فى أوقات الإفاقة، قرر متواطئًا أن يترك نفسه لريح الشك تتقاذفه من دون رحمة ولا ضوابط، يمكننا، بكل أسف، أن نلتمس **لآدم** بعض العذر؛ لأن المنطقة، التى استُدرِج إليها **آدم**، منطقة معتمة، ليس بفضل أنها لا تُرى، ولا حتى بأعظم النظارات المُعَظِمة، حتى تلك التى لم ينو أحدٌ اختراعها بعدُ، فضلا عن العين المجردة فحسب، لكن، وهذا هو الأهم، أنها منطقة خطرة وحساسة جدًا بالنسبة

لأى جنس فى العالم، حتى الحيوانات العجماء التى تعيش بالغريزة، ولم تحمل الأمانة مثل الإنسان الظلوم الجهول، وهى مسألة النقاء العرقى وإمكانية اختلاط الأجناس، وإذا كان الاختلاط ممكنًا رغم حروب التطهير العرقى، التى تجتاح العالم تحت لافتات برّاقة، واختلاف الدماء ومدى نقائها، ما بين الدم الأزرق، والجنس الآرى، وشعب الله المختار، فإنه يستحيل، هكذا يقول المنطق، بين أجناس أو مخلوقات من عناصر مختلفة، من النار والطين، ربما يحدث بين الحصان والحمار، فيولد البغل الحرون ذو الصفات الحمارية، لكن كيف يحدث بين النار، غير المرئية، التى تنفذ من الحيطان الصماء، والطين اللازب الذى تحرقه النار؛ فيصير صلصالًا مُعتبرًا يتكسر عند أقل اصطدام، وعلى فرض إمكانية حدوث ذلك، فكيف نرى أو نُجزم بحدوثه، وإذا حدث حبلٌ، فلمَنْ يكون الولد، للطين أم للنار، فضلا عن أنه يفتح بابًا واسعًا للتخفى وراء شيطان الرذيلة الفاجر، والتنصل من تبعات الفعل الحرام؛ بزعم أن الشيطان لا تمنعه أعتى وأحكم أحزمة العفة المصنوعة من الحديد أو الجلد، المخترعة قبل الميلاد، فى عهد الملكة الآشورية سميرامس، لمنع الفاحشة فى بلادها، ولا حتى أحزمة العفة المشهورة بشبكة البندقية، المخصوصة بأبناء المجتمع المخملى فحسب، دلالة على مستوى العروس، ودليلًا على عذريتها، تحتفظ الأم بالمفتاح الذهبى للحزام لتقدمه للزوج الغيور، الذى يعلقه فى رقبته، للحفاظ على عفة زوجه من الانتهاك غير المبرر؛ نظرًا للغياب الطويل فى حروب سرمدية بين الأمم؛ لا يعلم إلا الله وحده، لماذا وكيف بدأت ولا متى تنتهى، ولا يمكن بحال من الأحوال أن يقول أحد مشايخنا العَالِمين ببواطن الأمور، إن تزاوج الطين والنار، يحدث على هيئة الاحتلام، الذى فسره فرويد، بعد ثلاثة وثمانين عامًا، أفناها فى محاولات دءوب لمعرفة ماذا تريد النساء، بطرق أخرى أكثر علمية وأقرب تصديقًا، رغم شططها أحيانًا واعتمادها غالبًا على حالات مرضية أو طفولية بريئة، فى محاولات يائسة، مثلما يستحلم الرجل تمامًا، فهذا إن جاز فى حال الرجل؛ نظرًا لأن أعضاءه المستخدمة فى تلك العملية البيولوجية المرغوبة بشغف، للذكر والأنثى على السواء، المطلوبة بشدة لإحداث توازن نفسى وعصبى، وتمرين إنسانى رائع لاحترام الذات، وخلفة البنين والبنات، تكون متاحة للعيان، فإنه يستحيل فى حال المرأة، التى تقوم فلسفة الخلق الإلهية على سترها، الأمر محير، بل مدمر للأزواج الآدميين، أمثال **آدم**، الذين يفخرون دائمًا بأنهم همّ ولا أحد سواهم، مَنْ كان له شرف فض عذرية زوجته، وهو الرجل الأول، الله وحده يعلم، صدق أو كذب، هذا الادعاء، فى حياة زوجته العاطفية وغير العاطفية،

وأنها لم تعرف رجلًا سواه منذ ولدت، يُحتفل بذلك الوهم بطلقات نارية، تُرفع فوقها أعلام الدماء الحمراء الدالة، المؤكدة بالأيمان المغلظة على شرف البنت، أقصد، التى كانت، حتى هذه الليلة، بنتًا، فتعود الدماء الهاربة إلى وجه أبيها، ويذهب إلى العشاء إن كان جائعًا، وهو بالفعل كذلك، بعدما اطمأن على أن ابنته رفعت رأسه عاليًا، كان ذلك بالطبع قبل أن تغزو الأغشية الصينية المبتكرة حديثًا، الفعالة لمدة قصيرة، نصف سكان المعمورة، الذين يُدفعون إلى سرقة حقهم الطبعى، تحت سياط حرمان مفرط؛ نتيجةً حتميةً لظروف خلقها البشر أنفسهم، أو، عنوسة جبرية، تأكل الأخضر واليابس وتجرف روح الإنسان، المؤسف حقًا أن هذه المعلومات التى جاءتنا عبر اجتهادات أسلاف صالحين، غير مؤكدة، ولا يعلم إلا الله وحده مدى صوابها، ولا سبيل، على الأقل فى الوقت الحاضر، أثناء كتابة هذه الرواية الغريبة، التى اختارت عالمًا غير مرئى، فضلا عن أنه غير مسموع، لتروى عنه، لا سبيل إلى معرفتها يقينًا، أو التأكد من صحتها، ولو دخلنا عفويًا فى باب الاختلاف بين العلماء الأجلاء، لتأكيد أو نفى، هذه المعلومات، فلن نخرج منه حتى يوم الوقت المعلوم؛ لذا نتوسل بضراعة غير منتهية كأملٍ أخير، أن ينعم الله العلى القدير، على **حواء وآدم**، بحياة مستقرة، مثل كل الناس العاديين، الذين نظن أنهم عاديون، رغم أننا لا يمكن أن نتيقن من هذا الظن أبدًا، الذى ليس إثمًا بالتاكيد، لأن الهدوم تدارى والحيطان تدارى، والمركز الاجتماعى يدارى أيضًا، فكثيرون يقاومون شعورًا مفرطًا بالتعاسة؛ رغم أنهم، مثل آدم تمامًا، يتصفون بالمغالاة فى تقدير الذات؛ ليشعروا بأنهم أكثر سعادة من الآخرين، ومع ذلك نتشبث بالقول إنهم طبعيون، فى قول أكثر دقة، لأننا قطعًا لا نعلم حجم الانتهاك الذى تسببه الشياطين لبنى **آدم**، مدفوعين بميراث ضخم من الحقد والحسد، من أبيهم إبليس اللعين، لعنه الله، الذى سلط ذريته الرجيمة على **آدم** وذريته، لتنتقم وتنتقم، وتظل تنتقم إلى يوم الدين، جراء حادث السجود ورفض السجود، خاصة على قوارير بنى **آدم**، وهن الأرق والأضعف، الجميلات منهن والقبيحات على السواء، حيث اختلاف مقاييس الجمال الشيطانى والإنسانى، تسليطًا منظمًا وممنهجًا من دون كلل أو ملل، مدعومين بالقدرة على التخفى وطول العمر، وسرعة الانتقال الضوئية، والكثرة العددية، التى تقدر نسبتهم إلى نسبة الآدميين كنسبة التسعة إلى الواحد، والأصناف المرعبة التى هم عليها، صنف حيات وعقارب وخشاش الأرض، وصنف كالريح فى الهوى لا يأكلون ولا يشربون ولا يتوالدون، وصنف عليهم الحساب والعقاب، يأكلون ويشربون ويتناكحون، منهم السعالى والقطرب والغول، لا

عمل لهم جميعًا سوى التعكيرِ، ومزيدٍ من التعكير، إلى يوم القيامة، والاصطياد فى الماء البشرى العكر على الدوام، لولا مغفرة الرب ورحمته، التى تحيط بنا وتحمينا من كيد الشيطان، الذى يوصف، رغم كل ذلك، بأنه ضعيف، ومن الأذى الذى ربما يُطالنا من التجرؤ بهذه الكتابة المستبصرة فى عالم الخفاء، معذرة لمرة ثانية، سأضطر للتوقف بعض الوقت ليس طويلًا، وترك **آدم** هنا فى محل **محمد سكسفون** الحلاق، يحاول أن يفرج عن نفسه بعض الكرب، ينسى أو يتناسى، حتى يصل إلى مستقره وصدره الحنون، حسنة، سأتوقف رغمًا عنى؛ لأننى مضطر وبصراحة غير مُخجلة إطلاقًا، ولأسباب مُعتبرة أيضًا، تخص الحال التى تمر بها المحروسة، منذ خلق الله الدنيا، بالخصب والذل معًا، المذكورة فى القرآن، ثلاثين مرة، وفى الحديث، جندها، لا ضباطها، خير أجناد الأرض، من تخبط، لم يحدث كثيرًا فى تاريخها العريق، الموغل فى القِدم، أظهرت أسوأ ما فى البشر، الذين هم نحن، بعدما تجلى، على مدى ثمانية عشر يومًا فقط، أنبل ما فى البشر، الذين هم نحن أيضًا، وأيضًا سوف تخرج الثورة، من أحشاء الشعب، بيضَ الثعابين، ليس هذا فحسب، فهناك أسباب أخرى، ربما تكون أكثر إلحاحًا وضرورة، هى أن **عمر** الصغير ذا السنوات الخمس، بعد أن انتهى من معاقرة الألعاب الكارتونية المعقدة، التى تزيد عصبيته، وتحوله إلى شخصية كارتونية بجدارة، أراد، أعزكم الله، أن يعمل زى الناس، ولم يجد غيرى للقيام بهذه المهمة الجليلة والعاجلة، التى لا تحتمل أى تأخير؛ لأى سبب كان، حيث أمه التى عملت حديثًا، بالأجر، فى مهنة التعليم، إرث النبوة، ببركة يناير، تتابع، بدأب منقطع النظير، مراجعة الدروس النهائية لإخوته، ونحن لا نقلل من الدور العظيم، الذى تقوم به هذه الزوجة العظيمة، فهى تفعل كل شىء فى حياتنا المعقدة، ولا تحملنى أية مسئولية، كما تقول لى دائمًا، فوراء كل كتابة عظيمة، حكومة ظل عظيمة؛ إما بتوفير الصفاء الذهنى اللازم، أو بطريقة أكثر فعالية بأن تتكد عليك فتهرب إلى الكتابة؛ فلها الفضل فى كل الأحوال، فإما أن تجعلك سعيدًا، بِعد الشر، أو تجعلك كاتبًا، هذا طبعًا غير الملهمة السرية، التى إن لم تُوجد فى الواقع، فإن الكُتّاب، ولستُ منهم، احترازًا لما يمكن أن يحدث بعد نشر هذه الرواية، يخترعونها فى الخيال، ولا يحاول أحد هؤلاء الأكثر خبثًا، الذين يحاولون قراءة الأفكار، والتفتيش فى الضمائر، أن يصطاد، مثل الشياطين، فى الماء العكر، وينحرف بالكلام عن مقاصده الشريفة، سعيًا لتهدئة النفوس، ويعلم الله وحده، أننى أعنى أم العيال بكل تأكيد، ليس طلبًا للسلامة فحسب، وإنما، وهو الأهم، اعترافًا بجميلها الذى يطوق عنقى،

ويغطينى من ساسى لراسى، لذا، وبحكم العرف والقانون، وبوصفى الرب القيّم على الأسرة، وعلىّ التكفل بحاجات الأسرة الأساسية، وغير الأساسية، ألتزم بالدور المنوط بى تمامًا، من دون أدنى انحراف، أو حتى محاولة التخفف من الواجب المقدس، الذى تخلى عنه محجوب عبد الدايم[12]؛ لذا علىّ أن أكتب كيفما تيسر، أى أغزل برجل حمار، وهذا ما أفعله مخلصًا، ذلك يجرنا، ويا للأسف، إلى التحدث عن المأساة التى يعانيها كاتب، ليس فى مقتبل العمر الحياتى ولا الإبداعى، وهو ينسج خيوط حكاية تبدو خيالية تمامًا، أو المفترض أنها خيالية، رغم الفقر المدقع الذى تعانيه المخيلة العربية المعاصرة، بعد سبع سنوات ضوئية، من العمل الدءوب، على ملء سبع كرسات مدرسية بمعلومات تاريخية، لن يُستفاد منها غالبًا، مستقاة أساسًا من أشخاص عاشوا الأحداث ساعة حدوثها، أو، تخيلوها وتكرموا علينا، نحن الكُتّاب، بأن وهبونا وقتهم، وربما أسماءهم، بوصفهم جنودًا مجهولين، ليساعدونا فى إلقاء الضوء على التاريخ المنسى، وتعميقًا لمأساة الكاتب؛ بفعل القدر أو العفاريت، لا ندرى بالضبط، ضاع مخطوط الرواية الإلكترونى، التى اخترنا اسمها الحالى من بين ما يربو على أربعين اسمًا مقترحًا، منها، النقاب، العمى، شجرة الخلد، نصف تفاحة، المرأة المسكونة، لكنها، لسوء الحظ، اختيرت من قبلُ، من قِبل كُتابٍ أكثرة شهرة ورسوخًا فى هذا الفن، غير سبعة أسماء أُخر، غاية فى الرقة والدقة، اختارها، بعناية فائقة، أبويا **حسن**، لكنها اسُتبعدت نظرًا لشاعريتها المفرطة، وبعد مشورة ما يزيد على خمسين من الشخصيات المحترمة، ذوى الحيثيات الإنسانية والأدبية، بعد قراءة الرواية فى نسخها المختلفة التى تعدت العشرين من دون مبالغة، والاستقرار شبه النهائى حتى الآن، حيث لا نهائية فى الفن، على النسخة التى بين يدى القارئ الصبور، الكريم، فائض الكرم والنبل، على سخافتنا، نحن الكُتّاب، فيما نختار من موضوعات صعبة، وشخصيات عصية على الانصياع لإرادتنا، شخصيات ليست سهلة الانقياد على الإطلاق، ليس لأنها عفاريت، لا سمح الله، وإنما، وهذا هو الأهم، لضخامة المسئولية التى تقع على عاتقها، بوصفها شخصيات روائية يُفترض أن تكون جذابة ومحبوبة على الدوام، حتى لو كانت شريرة؛ لتستدر عطف الكاتب والقارئ معًا، وهذا ما لا يحدث حتى فى الحياة الواقعية، الأكثر إبداعًا وغرابة وإحكامًا من تلك الشخصيات الورقية؛ لأنها من إبداع الخالق العظيم، قلنا ضاع المخطوط من الحاسوب، كما ارتضى له المعجميون العرب، هذه التسمية العجيبة، غير المعبرة من

[12] بطل رواية القاهرة 30 لنجيب محفوظ.

وجهة نظرنا، ثلاث مرات متفرقة، ضريبةً مستحقةً واجبةً الدفع الفورى، نتيجة الجهل المطبق، وربما المتعمد، والنفور الفطرى والمطلق من وسائل التكنولوجيا الحديثة، حتى فى جيلها الأول، الذى لم يعدْ مُستخدَمًا فى بلاد المنشأ، الضربية فادحة جدًا، بالقياس إلى المجد الأدبى المنتظر والمرجو باستحقاق، حتى بعد الممات، لكاتب يعتقد، بيقين، أنه ذو موهبة حقيقية، تُعبر عن نفسها بمشقة، عبر العمل الدءوب، المنظم، الجاد، لكنها، أى الضريبة، تافهة جدًا بما لا يُقاس، بالنسبة إلى المتعة الروحية والنشوى الخالصة، لكاتب أحب الكتابة بوصفها فنًا أمميًا مُخَلِدًا الحضارات، واسمحوا لى، عفوًا، ولإرجاع الفضل لأهله، فى هذه الفرصة السانحة، غير المتاحة كثيرًا، أن أشكر وأشكر، وأكرر الشكر، فمَنْ لم يشكر العبدَ، لم يشكر الرب، كلَ الجنود المجهولين الذين يمنحون الكُتّابَ حياتهم، ويوفرون أنفسهم، بالصدفة أو بالقصد، أبطالًا حقيقيين، على أوراق تُنسب، فى النهاية، للمؤلفين والكُتّاب، وحتى لا نُتهم بجلد الذت، أو بأننا نبخس هؤلاء الأخيرين، الكُتّابَ، حقَهم؛ يمكن، على استحياء، إسناد بعض الفضل إليهم، بخصوص هؤلاء الجنود، الذين كانوا مجهولين، قبل أن يتعطف عليهم كاتب، ويلتقطهم من زحمة الحياة، بقدرة انتقاء فائقة، ويضعهم فى كتاب؛ فيكتسبون وجودًا حقيقيًا، ويصبحون خالدين لا يموتون أبدًا، وربما صاروا أكثر شهرة من خالقيهم، المؤلفين، التعساء، بين قوسين، الذين لا تهمهم مصائر الشخصيات، سواء الروائية أو الواقعية، ليس لأننا لا سمح الله، عديمو الحس والشعور، لكن لأننا اعتدنا النظر على البشر المساكين من البرج العاجى، ولا أعرف لماذا العاجى بالذات، ولكنها حيلة تبلدية لعدم الموت فعليًا، مع شخصياتنا العزيزة على قلوبنا، أبنائنا، فلذات أكبدنا تمشى على الورق، أو لتحرى الدقة، نحن مرضى التأمل والموازنات والمواءمات والتصالحات، بقدرة خاصة على الاستمتاع بمظاهر الحياة كافة، مهما تناقضت؛ لنصل إلى حال من الصفاء؛ تمكننا من مواصلة العيش فى سلام، وهذه وحدها معجزة، فى بلدكم هذا، فى زمنكم هذا، وكل شىء فى النهاية يسير فى طريق مرسومة، حسب سنن كونية محددة، النبات والحيوان والجماد، يبدأ من شىء لا يُرى وينتهى كما بدأ، إلى شىء لا يُرى، فى إطار قانون الطاقة الأزلى، التى لا تُفنى ولا تُستحدث من عدم، أكرر المعذرة، لمرة ثالثة، عن هذا الشرود، ربما المُتَعمّد، بقصدية قاهرة، هروبًا من واقع كابوسى يعيشه هذا **الآدم**، وتعاطفًا عاجزًا معه، ولا مفر، فلا يمكن أن نترك **آدم** هكذا فى البداية، فما زالت الطريق

طويلة، ولا بد أن **سكسفون** انتهى من حلاقة ذقن **آدم**، ونفض الفوطة بقوة على البلاط، وقال **لآدم** بوجه أملس، مثل قناع، لا تعرف ما تحته:

نعيمًا.

و**آدم** ينظر إلى وجهه فى المرآة، المعلقة فوقها صورة أبو خالد، لا يرد، ويميل بجذعه، ويرفع بيده اليمنى قُلةً، تستحم بالندى كل ليلة، تحت اليافطة ناصعة البياض والنظافة، المكتوبة بخط النسخ، حلاق الباشا، وتحتها، بخط أصغر، إدارة الأسطى **محمد سكسفوف**.

***

خش يا حبيب خيتك.

حين قالت **حُسنة** كان **آدم** دخل بالفعل، وحدها **حُسنة** المنقذ لى و**لآدم**، تنقذه من أفكار سوداء، أفكار رجل مطعون، فى رجولته، وتنقذنى من عبء القص، بما يترامى إلى سمعها عبر رياح الطائفين عليها من نساء ورجال وبنات وأطفال، تقول حسنة ما يعجز، أو يخجل، أو يخاف، الآخرون من قوله، بعطف أمٍ، وقسوة جراح مدرب على فتح الخراج وتنظيفه، بمهارة لا تترك فيه أثرًا أو ندبًا، بعد نزع الفتيل الأخير، وقف **آدم** يلهث فى الظل، كانت **حسنة** كعادتها، تجلس فى ريح الباب، تتدثر بالجلباب الأسمر تلتحف المَلَس، تضع بجوارها، فى متناول يدها وهى جالسة، عدة القهوة، صينية نحاسية بحواف مشرشرة، فوقها كنكة نحاسية لامعة، فناجين البيشة، ملعقة صغيرة، مجمع سكر، مجمع بُن، تطحنه فى هون صغير من خشب الصندل، وتحوجه بالقرنفل وجوز الطيب، تسوى البن فوق سبرتاية صغيرة بلهب أزرق. ناولته فنجان بيشة، مملوءًا لحافته قهوة بوش، تعلوه رقائق دخان شفاف، يُمسكه **آدم** بين السبابة والإبهام، يرتشف من دون صوت، يدور لسانه فى فمه، يستقر فى سقف الحنك، تلف حسنة سيجارة وتُشعلها، تأخذ نفسًا وتناول **آدم**؛ يسحب آدم نفسًا عميقًا، يحبسه فى صدره وينفثه ببطء؛ تكفى **حسنة** الفنجان على وجهه فوق الصينية، تقول **لآدم**:

أشوف لك البخت.

يقول **آدم**:

عارفه.

تمسح **حسنة** على رأس **آدم** بأصابع حنون:

جه الليل السعيد والعبد ساوى السِيد.

وتناوله خبزًا ساخنًا، وكوبًا من اللبن، تدعو له:

ربنا يحنن عليك.

وتهوى الأسئلة، على رأس **آدم**، شلالا من الهمّ، يرتحل وهو مربوط إلى جوارها، تحمله إلى القمة وتهوى به إلى القاع، يعرف كم هو بائس، لا يملك **آدم** من أمر نفسه شيئًا، تستدرجه الحياة فى دروبها الوعرة بقبضة ناعمة، تتمزق روحه؛ تفتر حماسته، يفقد الشغف، يقع فى حال إذعان راسخة، ينساق وراء الهواجس من دون بصيرة، تنتبه **حسنة** إلى بوادر الشرود، فلا تترك **آدم** لنفسه، يحلق صوتُها مواسيًا:

البِينْ عملنى جَملْ، واندار عمل جَمّالْ

ولوى خزامى على إيده، وشيِّلنى تقيل الاحمالْ

قلت له يا بِينْ، هو الحمل التقيل ينشالْ

قال يا بدر رِقْ الخُطا، وامشِ على مهلكْ

كل عقدةْ ولها عند الكريم حلّال.

طرح **آدم** رأسه فى حجر **حسنة** المريح؛ فوضعتْ **حسنة** يدها اليمنى على جبهته، وهمهمتْ، ترقى **آدم** بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامّة، ومن كل عين لامّة، **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ، مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ.. قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ...**

أغمض **آدم** عينيه مطمئنًا، ابتسمتْ **حسنة** بمرارة:

محدش خالى من الهمّ.

قلدَ **آدم** لهجتَها ضاحكًا:

حتى جُلوعَ المرَاكِب.

ركنتْ **حسنة** ظهرها إلى حائط البيت، وروحها إلى حائط الذكريات المنيع، تستجلب ماضيًا لم يكن سعيدًا على الإطلاق، خلافًا لقاعدة مصافى الزمن المشهورة، كانت **حسنة** البنت البكر لفلاح من قرية شُطب بأسيوط، عندما ولدتْ، أهملها أبوها ستة أيام كاملة، من غير اسم، وفى السابع لطمت أمها على صدغها، واستحضرت الجدة التى تضرعت إلى الله أن يحنن قلب الأب، نظر الأب بعين جاحدة، وقال:

قطيعة خلفة البنتة، سِموها أنتم.

تطّلعت الجَدة فى وجهها الصغير البهى، وتصعبت، وقالت:

حُسنة إن شاء الله.

قنط الأب من انتظار ما لا يجيء، أو، ما لا يأتى فى موعده أبدًا، هجر الأم ودفن نفسه فى الكيف، حتى جاء الولد مخبولًا؛ فاتخبل الأب هو الآخر؛ سار فى سكة الندامة، أخرج **حسنة** من المدرسة، رغم أنها أظهرت نباهة فى القرآن والحساب؛ دفعتْ ناظرَ مدرسة الحسين الابتدائية ومدرسَ العربى وشيخ الجامع؛ أن يتوسطوا لدى الأب، من أجل أن تكمل **حسنة** تعليمها، قابلهم الأب بإكبار يليق بقاماتهم السامقة؛ ذبح ذكر البط الوحيد المزقم لمولد النبى، اشترى كيس بُن مخصوص وباكو معسل؛ غسل جوزة المناسبات، المصنوعة من ثمرة جوز هند كبيرة؛ تشعب الكلام فى كل الاتجاهات بطلاقة وإذعان ريفى مدهش، من فلاح يعرف أقدار الرجال، حتى فتحوا الموضوع الرئيس، نفخ الأب عروق رقبته النحيلة، وقال بصلف:

أنا عطيت كلمة.

انفضوا، من حوله، يجرّون أذيال الخيبة، يتجرعون مرارة الحسرة، ليس على كبريائهم المجروحة وكرامتهم المهيضة فحسب، بل على مستقبل البنت، التى رماها الأب لأول ناعق، ليتخفف من حِمل الخلفة، تسع بنات وولد مخبول، كان لدى **حسنة** أمل باهر أن تخرج من بيت الهمّ والفقر والضيق، إلى فرحة عرس لم تر منه سوى الفستان الأبيض، ليلة الدخلة كانت ليلة سواد، فزّعهما حماها على باب البيت، ملقنًا ولده الوصايا العشر:

مراتك فى الليل، وفى النهار تشتغل فى الدار والغيط كيف البهيمة، تعمل بلقمتها.

ونظر إليه نظرة استصغار:

خَلصْ يا مِتع، ناسها مستنين شرفها.

كان صغيرًا بما يكفى للغرق فى شبر ميه، دخلتْ الأم والعمات والداية، فى حملة مداهمة لإنقاذ سمعة العائلة، المعلقة برقبة الصغير، من لعنة ستطارده حتى نهاية عمره، رغم التكتم الشديد، مسببة عقدة نفسية، رغم أيماناته المغلظة، التى لن يصدقها أحد، بأنه كان فارسًا مغوارًا فى ليلة العمر، كتفنها مرابعة، انتهكن حرمتها، تركنها، بين الحياة والموت، غارقة فى دماء الشرف البهية، وخرجن تجلجل زغاريدهن وسط لعلعة الرصاص.

هكذا بدأت **حسنة**، بالدم، حياتها غير السعيدة، أول عهدها بالرجال، عاشت واحدة من قطيع عريض من نساء، هن، على أفضل تقدير، نسخة واحدة مكررة، مجلوبة للشغل وللفراش، كرهت صنف الرجال، المرأة بالنسبة له سيجارة يستحلبها لآخر نَفَسْ، يسحقها تحته، تكتم النَفَس، هى

وأخواتها، من الكسوف وأبوها يسحق أمها فى الليل، تفتح وعى **حسنة**؛ بدأت تسترق السمع، تنتظر الليل بصبر فارغ، استغاثات الأم، المكتومة، غير المجدية دائمًا، جعلتها تكره ما يحدث، رغم سعادة أمها صباح ليل الاستغاثات عديمة الجدوى، فكانت تسرح فى الخلاء؛ تهرب من خنقة الحجرة المظلمة، ينام الجميع فتتسحب إلى جدتها لأمها، تنام فى حضنها، تحكى الجَدة حواديت الزمن الأسطورى الخادع، الجازية، ذات الهمة، الزير سالم، أبو زيد، شيخ العرب همام، ضربها أبوها علقة موت؛ لأنها خرجت من دون إذنه، لكنه لم يكن جادًا، بما يكفى، أمام عنادها المتصلب، قال، فرحًا فى قرارة نفسه:

المركب اللى تودى.

كرهت **حسنة** الليل، فى بيت عرسها السعيد، يدخل الليل فتحس بقرف؛ شبح زوجها يطاردها، اختنقت منه واختنق منها، حتى أعيته الحيل، لفك شفرتها، وأعيتها حيل الصد والممانعة؛ ناولها سيجارته المحشوة على سبيل الاستفزاز، تعجب حين تناولتها بشغف، دماغها فك وبالها راق، تضوع بمسكها، باستسلام مريح، وتعرقت بأنفاسه الكريهة من دون قرف، صار ذلك دأبهما كل ليلة، ينتهيان فينام؛ أما **حسنة** فتسهر، على ضوء اللمبة الجاز، مع كتبها المهربة، تنام، فى النهار، واقفة على العجين، من التعب والسهر، حماتها عايرتها بالعقم، وبخلفة أمها البنات وبالأخ العبيط، شحنت زوجها فتربص بها؛ هجم عليها، ضربها، رمى الكتب فى محمة الفرن، إخوته ونسوانهم وعيالهم، كل البيت، نظروا إليها بشماتة، لم يطرف لهم جفن، وحماتها تصدر حكمها النهائى، غير القابل للطعن أو الاستئناف، بكلمات واضحة لا تحتمل التأويل:

ودى مرتك بيت أبوها.

طفشت **حسنة**، من قرية إلى نجع، بلد يشيل وبلد يحط، تخربش على لقمة العيش، غريبة، مطلقة، طلع لها فى كل خرابة عفريت، وما عفريت إلا بنى **آدم**، حتى ضلل عليها **محمد جاب الله**، الغفير فى دوار عمدة مشتهر.

قطع **آدم** سيل ذكرياتها السعيدة، بسؤال يثبت أنه موجود فحسب، يستمع إليها باهتمام:

العمدة الأسطورة.

حبست **حسنة** دموعها المنسالة فوق خديها وقالت:

لع..أبوه.

فارت القهوة فأطفأت اللهب الأزرق، وضع **آدم** يده على كتف **حسنة**؛ منبهًا بقلب عطوف:

القهوة.

صبتْ **حسنة** القهوة، وناولت **آدم** الفنجان، تذكرت **شامة بنت محمد عصر** أول عمدة من عائلة عصر، الشيخ الأزهرى، ناظر الخاصة الخديوية، تشربان، **شامة وحسنة** معًا، قهوة العصارى، فى دوار **عبدالله عصر**، أول عمدة قنى سيارة فى البلد، يركبها إلى الغيط، يقول لحفيده **مؤمن:**

العربية دى عاوزة تموتنا موتة أم كلثوم.

يرد **مؤمن:**

أم كلثوم عايشة يا جَدى.

يستدرك العمدة:

أسمهان، أسمهان؛ أنا عارف بقى، انت عارف كل حاجة.

ويغنى:

عبدالله الكبير خلف عبدالله الصغير

عبدالله الصغير جاب عربية

العربية وقعت فى الرجبية

طلّعْ يا باشا، طلع يا باشا.

يفرح **مؤمن** بغناء جده الجبار، الذى ذهبت خمرياته جفاءً، ومكثت فى الأرض حكايات عدله الأسطورية:

أنت عارف مؤمن، الصحفى المشهور، الذى حقق، بفضل دأب أبيه عبد الوهاب، وامتثاله النادر، طموحات جَده الأسطورى.

قالت **حسنة** بفخر الانتماء، ومدت يدها فى صندوق خشبى صغير له رائحة الزمن، أخرجت مصحفًا مكتوبًا على الجلد، وقالت:

من ريحة عمك جاب الله، الله يرحمه.

ابتسم **آدم:**

لو كنتِ صغيرة شوية.

ضربته **حسنة** على صدره:

ربنا ما بيديش القحف عَدَلُه.

وتألقت عيناها بوهج فاتن، خفتْ مثل ملاك، ترقى فى هالات من النور؛ مات **آدم** من الرعب، ظل بصره معلقًا حتى ظهرت مرة أخرى، مس يدها بخوف، وعدم تصديق، غيّم وجهه؛ نظرتْ **حسنة** إلى **آدم** مندهشة:

مالك كفى الله الشر.

حواء.

قال **آدم** بيأس، قالت **حسنة:**

زَوَرّها التسعة خُدام السيد البدوى، سرهم باتع، كانوا يحطوا رجليهم فى الكانون، تحت الوكل لحد ما يطيب، البدوى نضرهم؛ قال لهم المكان ميسعناش، وحدف جريدة نخل خضرة على طول دراعه، وقال لهم مطرح ما تحط الجريدة تحطم رحالكم.

قال **آدم** مازحًا:

وحطوا فين إن شاء الله.

عملوا داير حول دندنا العجوز[13]**.**

قالت **حسنة** مخدرة بسحائب الرحمة.

تؤمنى بالسحر.

رمى **آدم** بسؤاله الأخير يائسًا.

طبعًا يا خويا، السحر مذكور فى القرآن.

قالت **حسنة** بيقين يشبه يقين الموت، وهى مشغولة فى لمّ العدة.

***

[13] قرية دندنا إحدى قرى مركز طوخ التسعة والأربعين وحولها يقبع تسعة أضرحة يقام لها مولد كل عام يسمى مولد التسعة.

الخواء أن تفقد البوصلة، تعجز عن تحديد الاتجاه، فى عرض البحر، أو وسط بحار من رمال، ناعمة متحركة فى صحراء، تلك بالضبط، ليس تقريبًا حال المدعو **آدم**، وزوجه الحبيبة **حواء**، وهما يخطوان أولى الخطوات المهتزة، غير المحسوبة ولا الواثقة، نحو متاهات الغياب، الليلة صاخبة بطبيعتها، مولد وصاحبه غايب إلى الأبد، بل أصحابه التسعة غائبون، إن صحت الروايات الكثيرة والمحققة فى التاريخ الشفاهى، والتاريخ السرى أيضًا، المكتوب على رقائق قلوب، أجيال تتلوها أجيال، من العوام والمريدين والدراويش، عن المعجزات والخوارق المبتسرة عن سياقاتها، المروية فى سياقات لا تنقصها الحبكة ولا التشويق، الأولياء الغائبون بجدارة تحت أبنية ضخمة، عالية تسمى مقامات وأضرحة، ربما يسخرون الآن من كل هؤلاء المحتفين بهم، بحرق أطنان من الحشيش والدخان واللحم، ودلق كثيرٍ من البيرة والمرق فى أمعاء متخمة، وأمعاء خاوية لا تبرّ نفسها إلا فى هذه المواسم، لم يصل **آدم وحواء** إلى المقام مباشرة، تعثرا كثيرًا فى الأرض المفروشة بأخلاط بشر فانين، يبيعون كل شىء، الحمص والحلاوة، لعب الأطفال الرخيصة، الترمس واللب والفول السودانى، العطور والغوايش الفالصو، العاهات متقنة الصنع، والهوى، يسرحون بالقرود، يقرأون الطالع، يعالجون أمراض الروح المستعصية بالرقى والتعاويذ، وأمراض الجسد المستوطنة، الدرن والبهاق والفواق بلبن الماعز وبول الإبل، وجنين حبة القمح المقدوح فى طاسة نحاس على نار أعشاب جبلية هادئة، يقدمون العروض الراقصة والهزلية والمعجزات الخارقة، القرد الذى يقرأ القرآن، والبقرة ذات الأرجل الخمس، عروس البحر، خدام الطرق الصوفية الممعنون فى الوجد.

لفح **آدمَ وحواءَ** دخانُ الذبائح الطالع من الكوانين، وصوانى الفتة، على حصر مفروشة حول ركيات نار مشتعلة، بخشب السنط والبرتقال والتوت والقوالح، فوقها غلايات الشاى والجِوز المعمرة بالمعسل والحشيش، انتهت بهما محاولة الاختراق الجبارة محشورين أمام الشادر الرئيس لصاحب الليلة، **العربى فرحان** المداح فى حب الرسول، عبر مكبرات صوت تصحى الموتى، تسمر **آدم** فى مكانه خلف **حواء** المُبتَلَعة نهائيًا وسط الحشر الدائخ من الدروشة، صرعها الصوت القوى الرائق:

يا ما ناس مساكين

لكن فى الأرض أوليّا

وناس معهاش ولا مليم

لكن فى الحب أغنيّا

إذا رفع إيده لسيده

يلاقى جميع طلباته مقضية

الرك مش عالعمل

الرك عالنية.

وقعتْ **حواء** على الأرض وتشنجتْ؛ حملوها إلى سيارة **زينهم**، المركونة على أول الطريق، ورجعوا من حيث أتوا، أشعل **عصفور أبو رضا** سيجارتين، ناول زينهم واحدة، وقال له:

تعرف حد بيعالج بالقرآن.

ونظر إلى **آدم** الغائب فى الفكر، قال **عصفور** لزينهم:

تعرف إن الملك زار السفاينة.

استفزه **زينهم** الذى عاصر فحت البحر:

والله.

أى والله.

رد **عصفور** ببرود، وأكمل من دون مبالاة:

وجاب ألفين قطعة قماش، وأربع عربيات درة، حكمدار الأمن أعطى كيلة درة زيادة لفاروق المجولى؛ لأن اسمه على اسم الملك، البلد فضلت تلمّ سبارس شهر بعد الزيارة.

عاد، **زينهم**، أيضًا، إلى زمنه الخاص، يحلو لـ**زينهم** ذلك دائمًا، أيام كان سائق **كوستا رتشو**[14] الخاص، تلك أيام مجده، قال بانتشاء:

وكوستا، كان يسهر فى ركن الملك بحلوان، والناس تستناه من أول كوبرى الحرازية وقهوة الظايط، يوزع كوبونات القطن، كانت أيام عز، الأيام دى هى السنين العجاف، أيام عزيز مصر، تزرعون ذهبًا ولا تحصدون شيئًا، الكل يسرق الشعب الغلبان، عبد الناصر، قال اللى عاجبه

[14] خواجة ألمانى صاحب محلج القطن.

عاجبه واللى مش عاجبه يمشى من البلد؛ كوستا بكى وقال انت بتنشف علينا الميه يا ريس، زمان كان الخواجة يصرف من عزه.

قاطعه **عصفور**:

الخواجات بتوعك نهبوا البلد.

ومال **عصفور** على أذن **زينهم**، وغمز بعينه السليمة؛ وهمس:

كوستا كان نجس.

تغير وجه **زينهم** وحلف:

والله، أبدًا، كوستا ابن ناس.

ضحك **عصفور** وقال:

ابن ناس زى المماليك.

لم يسمع **آدم** شيئًا مما دار، الحوار، غالبًا، لا يعنيه، كان مخنوقًا، لا يستطيع التنفس؛ امتلأ قلبه رعبًا، كان اليوم الأكثر سوءًا فى حياته، بدت **حواء** غير حقيقية، فقدت عيناها تألقهما السماوى، تنظر إلى فراغ لانهائى، يحاول **آدم** استرجاعها بحنين الأيام الأولى، تنظر إليه بإهمال مطلق، تنفتح فى نوبات بكاء وضحك متعاقبة، تتشمم رائحة امرأة أخرى فى ملابسه وأنفاسه، تسد الباب فى وجهه، تصرخ:

ارجع مطرح ما كنت.

يرجع **آدم** مقهورًا، أقصى ما يرغب أن يكون محبوبًا من المرأة التى وهب لها حياته؛ يتضور جوعًا، يعيش معها حلمَ يقظة جميلًا، يتنسم روحها المرهفة، صوتها المغرد، يحدق فى البيوت النائمة فى ظلمة الحارات، والأسطح المكدسة بالحطب وصوامع الغلال، يموت من الضجر، نامت **حواء** فى البيت مثل خرقة، وعاد **زينهم** إلى المحلج، **وعصفور** إلى المستشفى، أما **آدم** فتسلل عائدًا إلى المولد، وقف عند أول حلْقة صادفته، كانت مسرحًا من المشمع، فوق المسرح امرأة سمراء، ترتدى جلابية حمراء تحت جلابية سوداء شفافة، ووشاحًا أحمر يغطى نصف وجهها، تقول بإغراء فاضح، وهى تنظر فى عينىّ كل رجل مباشرة، توجه الكلام له وحده:

يا ريتنى مراتك.

ينهار الرجال، يقول أكثر من واحد:

الواحد هنا أسد وفى البيت يبقى خروف.

تتخفى المرأة فى ضى القمر، تغمز بعينين بلون العسل المصفى، يملأهما الحزن، ذلك الحزن المفعم بشجن الإغراء الإجبارى لأنثى الضياع، تضرب بيديها على وسطها، تلاقت أعينهما مرتين. غضّ **آدمُ** بصره إلى الأرض، ثبتتْ عينيها فى عينىّ **آدم** رغمًا عنهما، تصبب **آدم** عرقًا كأنه ضُبط عاريًا، اقتربت منه فى نصف دورة راقصة، وقالت بدلع فاجر:

يا خروووف.

ضج الفضاء بالهرج، دخل رجل من الخلفية، يرتدى جلابية بيضاء وحزامًا فى وسطه وشبشبًا من البلاستيك، يتقمص وجه الواعظ الحكيم، بغناء رخيم:

اسمع وأكد يا جدعْ

إنْ النصايب مّ النسا

البنت قاعدة مفشقةْ

وهدوم رَجِلَها مفتقةْ

والكحلة فّ عنيها مبحلقةْ

اسمع وأكد يا جدعْ

إن النصايب مّ النسا.

المرأة، **وعد**، هذا اسمها، امرأة المنامات الملتهبة، التى يحلم بها **آدم** فى منامات ساحرة، قبل أن يرها، أو، كأنها هى، وسوف يرى على يديها موتًا محققًا، تلعب على أوتار حرمانه المزمن، استغرقه النظرُ، فى محاولة ليست أخيرة، للخروج من دائرة الخراف الضالة، فوجئ **آدم** بنفسه وحيدًا، بعدما انفض السامر، رآه **فرج القط**، واعظ المسرح الحكيم، واقفًا مترددًا، ناداه ليساعدهم فى لمّ العدة، أكلوا معًا، وجلسوا يدخنون المعسل.

نام **فرج** من التعب، اقترب **آدم** بحذر من وعد النائمة، فتحتْ عينيها ببطء، فتلاقت جفونها من الإرهاق، ملأتْ خيال **آدم** بسحر غامض، تطلع إليها بخجل؛ قامت متكاسلة، نزلت درجتين من الزلط الأبيض المدرج إلى الترعة، ملأت كفيها بالماء وطست وجهها، جلستْ فى مواجهة **آدم**، رشقته بعينين مغويتين؛ نظر فى الأرض منسحقًا، كل ما يخشاه قد حدث، الارتباك، العرق الغزير، الشلل الداخلى العميق، الانكسار، ها هى تترك نفسها بين يديه، تسبل عينيها بنداء صريح، لم

يعرف **آدم** ماذا يفعل غير الهروب الذليل؛ ومن أجل أن نعرف كيف يفكر **آدم**، فى هذه اللحظة المفصلية، الفارقة فى حياة **آدم** الهشة، هذه المحنة العصيبة المفتتة لأعصابه الرخوة، لا بد أن نرجع إلى الوراء عددًا من السنين، حين نام **آدم** فى مدرسة الشهيد، تحت السور الشجرى المحيط بالمدرسة، رأى أمه وأباه يلبسان البياض، فتح عينيه على اتساعهما ليراهما، ضربت الشمس الساطعة عينيه النائمتين، **سعيد** ابن عمه **حامد**، يشد **آدم** من مريلته ليوقظه، ويأخذه مد يده إلى بيت جده **عواد**، يؤكد **سعيد** صدقه بأنهم ينادون **آدم**، فى فصل أولى أول، بـ**آدم محمد عواد**، وليس **آدم حسن أبوهمام**، ذهب **آدم**، بتشجيع من **سعيد**، مرات عديدة خلسة، ومرات أقل فى العلن، قبل أن يدبر حيلة طفولية ساذجة؛ ليعرف حقيقة أهله، فعزم جده **حسن أبوهمام** فى سينما سعودى؛ لكن المغامرة انتهت، كما نعلم، بأن **آدم** تورط فى إحساس مؤلم بالغبن، وذاق لأول مرة مرارة اليتم، تأكد **آدم** أن مصيره ليس بيده، رسخَ داخله إحساس، لن يتخلص منه أبدًا، بالجبن وعدم الإقدام أو المغامرة؛ لذلك رضخ **آدم** لنظرة الاحتقار المشعة، من عينىّ امرأة مثارة ومنتكسة، تعاشر رجلًا فى سن اليأس، يعمل بالمنشطات، إضافة إلى أن **آدم** ما زال عائشًا فى الإيهاب الغليظ، لوصية **أبو همام**:

عشان تعيش مستور مترفعش ديلك فى الحرام.

رغم أن **آدم** يعانى ما يشبه الانفجار، عبوات ناسفة من الغرائز والانفعالات والأحاسيس المكبوتة، انفجرت جميعًا فى حضرة **وعد** السخية، المباغتة، سيل من الكلمات والحركات والوعود، يخشى **آدم** دائمًا تلك اللحظة، لحظة أن يجد نفسه وجهًا لوجه مع امرأة، أى امرأة، يدرك بالفطرة، أنه سينهار مع أول لمسة، ومع أول لمسة أيضًا، لن يستطيع **آدم** نفسه، أو أى قوة خارجية أو داخلية، أن توقفه عن الانزلاق، فاختار **آدم** مرغمًا أن يقف على بُعد خطوات، على طريقة لا تقربوا، حتى يتجنب سوء المنقلب، **آدم** مثل معظم الناس، يصلى الخمس، ويصوم الشهر، ويطلب الستر، ومثل كل الورعين أيضًا، يتمنى **آدم** أن يموت كما وُلد، صفر اليدين من دون خطايا، لكنه لا يعرف، مثل الآخرين أيضًا، كيف يتجنب الذنوب، يروض نفسه التى تعيش على الضرورات، مات **آدم** من الرعب كأنه مراهق يرى أنثى عارية، كاملة العُرى لأول مرة، خارت عزيمته، انسحب، فانتفضتْ **وعد**، بقوة وعماء الغريزة، وراء **آدم**، ارتختْ بين يديه، زحف **آدم** خلفها، أحاطها بذراعين مرتعشتين، استسلمتْ **وعد** تمامًا، ظل **آدم** ساكنًا مثل صنم؛ لم تفلح معه كل محاولات **وعد** الجادة،

الصبور، الحذرة من **فرج** النائم بنصف عين مثل نمر؛ نفضتْ **وعد** ذراعيه، قامت ساخطة؛ ترف على شفتيها ابتسامة ساخرة كلها غيظ وحسرة.

***

قادهم عصفور أبو رضا عبر كليومترات من الطمى والغاب والحلفا والطين والرمال، إلى الفرعونية، القرية المنسية على شاطئ النهر، حيث يسكن شيخ سره باتع، اسمه **حافظ الغريب، آدم** الزوج المنكوب، فى رجولته، يقاوم سقوطًا مؤكدًا، رسّخَ اليأس فى روحه أوتادًا من صخر، لا مهرب؛ يحاول اختلاق أفراح مؤقتة، سعادات صغيرة، تُعينه على مواصلة الحياة، التعايش فحسب، ينسلخ من نفسه محاولًا باستماتة، أن يتوصل إلى السر، الذى ربما يكمن فى طفولة **حواء** اللاواعية، المدفونة تحت ركام من الخبرات الضالة والجهل المطبق، حيث الأفكار المنحازة، أو غير العادلة على الإطلاق، والتفرقة غير المستحبة، بين الولد المحبوب، المبجل، مهما أخطأ، ومن دون أى ميزة، أنعم بها عليه الخالق، سوى أنه ذكر، والبنت المضطهدة، برغم تفوقها وحنانها، التى خلقها الله أيضا أنثى، من دون أى رغبة من الله فى الغبن أو التمييز، امرأة مستقبلية قد تجلب العار، أو يأخذها رجل غريب، لم يتعب فى حملها وتربيتها، يأخذها على الجاهز، متناسين تمامًا، عن جهل أو عناد، أن الله **يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ* أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَاناً وَإِنَاثاً وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا**، وأن الرجل، الأب، هو السبب المباشر فى تحديد نوع الطفل، ذكرًا أم أنثى، وليست المرأة، الأم، التى تتماثل جيناتها الورائية إكس إكس، بعكس جينات الأب المختلفة، واى إكس، والباقى معروف، فلا داعى للخوض فى تفاصيل، يعرفها الجميع، ما عدا الآباء الذين يقدسون الذكور، هم لا يريدون أن يعرفوا، أو يصدقوا إلا ما يرغبون، ويرون فى الولد الذكر، العصب الذى يخلد اسمه، فى عالم هو بمنطقه، مخلوق للفناء، يحقق الأب رجولته الجوفاء، فى أحط أنواع التعبير الرجولى، إن كان أصلا ينتمى إلى الرجولة فى شىء، الشخط، تتزلزل الجدران الطينية من هيبته المزيفة، انزوت الصغيرة حواء، فى ركن أحلامها الصغيرة فى قاع حجرة مظلمة، لم تحس حنان الأم، المنضوية تحت العباءة الرجولية، طوعًا أو كرهًا، ظاهريًا على الأقل لأنها فعليًا، سيدة القطيع الحمقاء، لم يكن أبواها، الأم خاصة، من ذلك النوع الذى يحتضن أبناءه بحنو، عكس كل الآباء والأمهات فى حيوانات الأرض كافة، **فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا**، كان الأب، حديث السن مزهوًا، يذهب إلى الشغل صباحًا، ويترك الأم نائمة تعانى وسن العشق المخملى، وحدها **حواء** تنام مع ستها العجوز، التى تحنو عليها، تغطيها كلما تعرت، توقظها بإصرار وحنان، تسندها إلى الحمّام، أثناء الليل، حتى لا تتعرض لعقاب الأم،

نؤوم الضحى، لا تهتم، أفطر العيالُ، أم لم يفطروا، ذهبوا إلى المدرسة، أم لم يذهبوا، تستحم، تطلق خيالها إلى خارج البيت، إلى بيت الأم، أمها، هناك وقت طويل، لا بد أن يمضى قبل أن يحل المساء، ويعود الزوج من العمل، يأخذها فى طريقه إلى البيت، لتعد العشاء، ليس مهمًا أن يأكل العيال، قلبها لا يأكلها وهم يتضورون جوعًا، يعيشون على اللضى، لا تتورع عن الشكوى التى تسمّ البدن، بدن الكبار، فما بالك ببدن الأطفال الضعفاء، على طلبية العشاء، تبدأ الأم الحساب الختامى، ليوم من الأخطاء المفعتلة، عادة يرتكبها الأطفال، تنسحب طفلة الهواء، بخوف نسمة من دون طعام، تنزوى فى ركن مظلم فى حجرة الجدة العجوز، رغبًا أو تحسبًا لعلقة موت، يثبت الأب بها رجولة مهزوزة أمام سيدة القطيع المطاعة، يطارد الطفلة؛ تجرى **حواء** إلى الحمام، تختبئ وتغلق على روحها، المكان الوحيد، بيت الخبث والخبائث، الذى له ترباس يمكن سَكُهُ بسرعة، قبل أن تطولها يد الأب الطويلة بمقشة البلح، دافعًا إياها عن جهل غالبًا إلى أحضان الشيطان، لم تفهم **حواء** الصغيرة، السرَ الغامض غير المستساغ؛ لأنه ضد الطبيعة البشرية، أن تكون أمٌ قاسية على ابنتها الوحيدة، حتى جاء الأمر بما يشبه الاعتراف القسرى، أو السهو المتعمد، للفخر أو التنكيل، أو التشفى بأثر رجعى، حين أسرت الأم فى أذن ابنتها فى لحظة عابرة لن تعود أبدًا، ولن يمكن محوها أبدًا، مثل، طلقة، أو كلمة خرجت من الفم، لن يمكنها أن تعود، ولن تتذكرها الأم مطلقًا، ولن تغيب عن ذاكرة البنت، حتى بعد الممات، أن الأب لم يمد يدَه على الأم، أى لم يضربها قط، إلا مرة واحدة:

بسببك أنت، بسببك أنت لطمنى على وجهى.

قالت الأم وهى تضغط بأسنانها على مقاطع الكلمات؛ لطمة يتيمة، تجرأ الأب وفعلها، وليته ما فعل، فعل وكان ما كان، لن نخوض فيما حدث، يكفى أن نعرف أنه لن يجرؤ على مجرد التفكير، أن يفعل مرة أخرى، أفاقت **حواء** الصغيرة على وقع اللطمة، فهمت معنى القسوة وسببها، وأفاقت الأم من الزهو الزائف بعدم تكرار الضرب، على خطيئة الاعتراف المجانى، أولا بواقعة الضرب السرية والوحيدة، التى فضحتها الأم بسذاجة، وثانيًا على الإحساس المر بالتورط الاختيارى، والانزلاق إلى قول ما لا يجب أن يُقال، وللشخص الوحيد فى العالم، الذى يجب ألا يُقال له ما قِيل، حاولت الأم تلطيف الجو المعكر بفعل الاعتراف غير المناسب، لكن الوقت كان قد فات، الرصاصة انطلقت ولا سبيل إلى رجوعها، الكلمة خرجت من الفم، وجرى فى النهر ماء كثير،

أهملت الأمُ ابنتَها، رغم يسر الحال، قضت البنتُ السنوات الست الإلزامية فى مريلة واحدة؛ وكيس مخدة دمور لحمل الكتب المدرسية، تابعت **حواء** الدراسة بمعجزة، تفوقها أشعل الفتنة النائمة فى قلب إخوة ذكور فاتهم شرف التحصيل المدرسى، فسِيقُوا إلى أعمال الفلاحة الشاقة، مطلقين سهام حقدهم السامة إلى شخصها الضعيف، بالركل والتنكيل والخبص الذى يفضح انحياز الأم، يا للغرابة، قبل انحياز الأب للذكور.

كانت **حواء**، قبل أن يصيبها ما أصابها، تحلم كأية فتاة، بأنه سيكون لها ولد تحبه، وبيت لها وحدها، تكون فيه الملكة، تتلقى الحنان من رجل تحبه ويحبها، ولمّا حانت اللحظة، تزوجت بـ**آدم**، سحرته، من الطلة الأولى، بدت **حواء** مطيعة حد الملل، يعلو وجهها شحوبٌ ارستقراطى ناعم. ظل **آدم** شهورًا طويلة يرقبها عن قرب، من دون ملل أو كلل، بدأب حزين، من دون كلمة، غير أن العيون قالت كل شىء، طلب منها الزواج فوقعت على الأرض فاقدة الوعى. كان **آدم** فى أوج فتوته العاطفية والرجولية، عاشا معًا، **آدم وحواء**، سحرَ القبلة الأولى، فى بيت قديم، بدآ فيه ليلة العرس الأولى، تعرّف **آدم** روح **حواء** بدهشة النظرة الأولى لأنثى السراب، أصبح كل شىء مبهجًا، حل الربيع فى أرضه اليباب؛ أخيرًا وجدت الروح المقرورة عزاء من الحنان الرحيم، حتى بدأت بشائر غامضة لمرض ملعون، ظل كامنًا، متربصًا طوال الوقت؛ يضع **آدم** يده على قلبه؛ يترقب لحظة السحق القادمة، يتحسس بواطنه برعب شديد، يتوقع السقوط فى الخطوة التالية، لا يعرف طعم الراحة، يتمسح **آدمُ بحواء**، يحاول استعادتها، مساعدتها، يلتصق بها، يقبل عنقها من الخلف، يتلمس أذنها بشفاه راغبة، يداعبها مداعبات زوجية مشروعة، وغير متوقعة، مطلوبة بشدة فى حال الأزواج الطبعيين، يفاجأ **آدم** بنفور وصد وجفاء، **حواء** نفسها لا تعرف سببًا له، تعلله بضيق المطبخ، أو الخوف من النار المشتعلة، أو، هو الأسوأ على الإطلاق، أن **آدم** يعطلها عن الشغل، لكن **آدم وحواء**، لم يعرفا فى تلك السنوات البكر من التعاسة الزوجية، أنهما واقعان تحت سيطرة كائنات الخفاء.

صاحبتها الأفكار والكوابيس، منذ الصغر، تنام باكية من الحزن؛ أحست بشىء يتحرك، قامت مفزوعة لترى عينىّ قط أسود تلمعان بشعاع نارى فى الظلام، ماتت فى جلدها من الرعب، صرخت فاختفى القط الأسود رغم الباب المغلق، بين عشية وضحاها، تبدلت، بدتْ أكبر عمرًا، أنضج عقلًا من زملاء المدرسة، لم يفهمها أحد، كان الصفع بدل الاحتضان، غاصت فى الأحلام

المخزية، تتنبأ بمواسم القحط والفيضان، تأتيها فتيات فاتهن قطار العرس لتحلم لهن، يعطينها هدايا صغيرة، يسطو عليها إخوتها الذكور، يملأها إحساس بمرارة الظلم، تستكين على شفا نهر الحقائق المرعبة، تذبل أيامًا متواصلة، وتتفتح فجأة مثل زهرة بيضاء يقطر الندى من خديها، من دون أى سبب معروف، تغرق فى زخم حالم، تغوص فى نعيم اللذة، صهرها التوحد؛ خلقت عالمًا خياليًا مغلقًا على أسرار، هى نفسها لا تدرك مدى خطورتها، أو مغزاها، تسقط منهارة، من يد أمها فى السوق، أخذها الأب إلى الشيخ **عبدالله**، حسب نصائح الأهل المجربة، خوفًا من السحر والحسد، لأن البنت سابقة سنها، سألها الشيخ **عبدالله** عن اسمها واسم أمها، ردت بعناد واعٍ؛ أخذ راحتها اليسرى ورسم مربعًا كتب حوله طلاسم سحرية من جهاته الأربع، وضع فى قلب المربع زيتًا وزهرة زرقاء، كتب طلاسم أخرى، بحروف مفردة على ورقة مستطيلة، ثم وضعها كالمظلة على وجه الصغيرة **حواء**، غطاها بثوب ثقيل وهى ناظرةٌ فى راحة يدها، لا تراها بسبب الظلام، قرأ الشيخ عزائم غامضة لاستحضار الخدم المرصودين فوريًا، قال لـ**حواء**:

شايفة حاجة.

قالت:

لأ.

أحرق كثيرًا من البخور، وأعاد التعزيم، قال بنفاد صبر:

شفتى حاجة.

لأ

كذبتْ بالعناد نفسه؛ رغم الأشباح الصغيرة التى تتراقص فوق راحتها الزيتية الزرقاء؛ أصابه اليأس، نفض يده بزهق، قال لأبيها:

بنتك نجمها خفيف.

وصل **آدم وحواء وعصفور أبو رضا وزينهم**، إلى قرية الفرعونية، المحدوفة على شمال الدنيا، خاضوا فى حارات ضيقة، وسط بيوت طينية واطئة، بأبواب خشبية كبيرة، تتكوم أمامها عجائز بعيون خرزية سوداء؛ وشعور رمادية منثورة على أفخاذ عجفاء، يتفحصن كلَ غريب وهنّ يتهامسن حول قفف القمح، ينقين الحصى الصغير، يقذفنه فى أفواه كهفية، انتهوا إلى بيت كبير يملك ناصيتين، وساحة واسعة مزدحمة بالسيارات الملاكى، الأجرة، الكارو، أكشاك الشاى، المعسل،

الفلافل، بائعى البخور، العسل، المسك الإنجليزى، حبة البركة، أعشاب السعادة الزوجية، الوصفات الروحية، خلطات الوقاية من السحر والحسد والربط والمس والوسواس والخيالات.

دخلوا البيت من بابه الواسع، إلى صالة مربعة مفروشة بسجاد قديم متسخ، تفتح عليها حجرة جانبية، يجلس فيها الشيخ **حافظ الغريب**. جلسوا مترقبين دورهم، تفحص **عصفور** الزبائن بفضول حلاق لا يرتاح إلا إذا عرف أصل الحكاية، عزم على مساعد الشيخ بسيجارة، وجرجره فى الكلام، على طريقة سَهْيِ الكدابَ وحَدتُه، باح، بعد سريان المفعول السحرى لسيجارة الود، بكل شىء، على استحياء، بدايةً، وبأريحية كاملة، مؤخرًا؛ ليزيح عن صدره غبن الدهر:

للشيخ قصة عجيبة تنتشر كالنار فى هشيم القرية النائمة فى حضن النهر، كان حافظ صانع شباك فقيرًا، جاء مهاجرًا غريبًا لا يكلم أحدًا ولا يكلمه أحد، شبه منفى، يسكن خُصًا مهجورًا على شاطئ النهر، بعد الغروب تخشى القرية كلها مجرد المرور من جواره، قتلته العزلة، ينام مبكرًا؛ هربًا من الوحدة والحزن، يصحو فى الليل خائفًا، يقضى ليله فى قراءة القرآن، دموعه تنهمر، ذات ليلة سمع طرقًا على الباب، مات حافظ الغريب فى جلده من الرعب، حاول الرد، لكن لسانه خذله، ظل ملتصقًا بالأرض، قطع النفس، غاب عن الوعى، بعد استغراقه فى نوم الهروب، فوجئ بمَن يوقظه، صوت رخيم ذو رنين نحاسى حاد، ألقى السلام ومكث، يلاطفه ليخلع الخوف من قلبه، طلب الضيف من الغريب أخذ العهد، وافق الغريب على الفور، أخرج الضيف من معطفه الأسود قطعة من جلد كلب، جرح إصبعه وإصبع الغريب، كتب بالدم المختلط بلغة معقدة لا تقرأ، تناول إصبع الغريب، بصم به على العقد، وتبخر فى الهواء تاركًا رائحة مميزة، تسبقه دائمًا إلى الحضور، نام الغريب من الرعب، فى الصباح لم يعرف الغريب نفسه، ولم يعرفه الناس، وجد الناس رجلا آخر فى بيت كبير، يرتدى الصوف والكشمير، هرولوا إليه، من دون سبب منطقى، قاطعين الصلة تمامًا بين رجل الأمس ورجل اليوم، نسى الناس مع الزمن الغريب، وقعوا تحت سحر الشيخ صاحب الكرامات، الذى ترسل له العائلات المالكة طائرات خاصة، إلا أنا.

قال مساعد الشيخ وكاتم سره ولسان حاله ينعى حظه الهباب.

جاء دورهم، دخلوا متهيبين الموقف، تربعوا تحت قدمى الشيخ، المتربع بدوره فوق كرسى أربيسك لونه بنى محروق، يختلط السواد بالبياض فى لحيته الخفيفة، ابتسم **آدم** ابتسامة رجاء خائفة، مهانة؛ ابتسم الشيخ عن أسنان صفر، قال:

تقرب لها إيه.

جوزها.

رد **آدم** المسلوبة إرادته كليًا، حاول **آدم**، بصعوبة فائقة، أن يسترد بعضًا منها، من غير جدوى، رشق **عصفور أبو رضا** الشيخ بأسئلة مباشرة، استفاض الشيخ فى عنترياته على مسئول كبير فى الداخلية؛ لأن المسئول تطاول عليه، هدده الشيخ بحرق قلبه، قال، بثقة عمياء:

إنه يعرف وزير داخلية الجن نفسه، وإن ربنا سبحانه وتعالى، سخّر له أربعين ألفًا من الخدم العتاة، ومع كل واحد منهم ألف ألف.

لاحت من **آدم** نظرة دهشة؛ مأخوذًا بما يرى ولا يرى، بما يسمع ولا يسمع؛ يحدث نفسه بسهولة تعرضه للخداع؛ قبل أن يتكلم **عصفور أبو رضا**، قطب الشيخ بين حاجبين كثيفين مثل حاجبى أبو جهل فى فجر الإسلام، أمسك **حواء** من كفيها، شد ذراعيها على آخرهما، ضغط بإبهاميه على خنصريها؛ صرخت من شدة الألم، قال:

كَتِفْ يا عمر.

التفتْ يدا **حواء** الاثنتان خلف ظهرها؛ أمسك شالا من الصوف ولفّهُ حول رقبتها، شخط:

اسمك إيه.

رد صوت رجل مرتعد:

عبد الشيطان.

كشر الشيخ:

اسمك الحقيقى.

عبد المسيح.

رد صوت خاشع.

لماذا تؤذيها، ألم تعلم أن المسيح حرم ذلك.

أنا أحبها.

اخرج منها وإلا حرقتك.

قال الشيخ، وزرّ الشال على عنق حواء، وأخذ يتمتم، يهمهم، يفتح عينيه المخيفيتن، ويغلقهما بسرعة، يرهف السمع، لم يسمع ردًا؛ جذب الشال جذبة قوية وتركه دفعة واحدة، هبدت **حواء** على الأرض جثة هامدة، ضربها على بطنها بعصا رفيعة، ثلاث ضربات، قال:

قَومِْ يا عمر.

قامتْ **حواء** ويداها خلف ظهرها من دون مساعدة، قال **الغريب لحواء:**

حسيتى بحاجة.

لأ.

قالت.

سأله **عصفور أبو رضا:**

خرج.

طبعًا.

قال مقطبًا.

عِرفت إزاى.

سأله **عصفور.**

أنا شايفه.

قال **حافظ الغريب،** وناول **آدم** برطمانًا زجاجيًا به تركيبة سحرية، من حبة البَركة وعصير اللفت وأوراق السدر المخروطية ودموع الحيتان، وقال:

تحرق ثلاث شعرات من قضيب كلب أسود حى، وتمزج ترابها فى المحلول، تشرب حواء نصفه وتدهن جسمها بالباقى، وتشرب عشر لترات ماء مالح على غيار الريق، فيحدث لها قىء، والشفاء بإذن الله.

حاول **آدم** الاستفسار؛ فانفجرت النساء المكومات فى الحجرة، المغمورات بالخوف، خرجوا إلى الصالة؛ صدمتهم الرائحة الطالعة من كنيف مظلم خلف الحجرة، والأخلاط السحرية والبخور المحروق والعطور، لحقهم **زينهم،** أسند **حواء** مع **آدم** و**عصفور**، حتى السيارة، وساعدهم رجل من المحاسيب متطوعًا، بسرد كرامات الشيخ، قائلًا بيقين المجرب:

إنه جاء إلى الشيخ منذ سنوات مع زوجته، والآن مع ابنته، وشربت الماء المالح، والعَمل خرج من بطنها، مع كلاكيع دم سوداء.

رد **عصفور أبو رضا**، المسحوب من لسانه، معاون البلهارسيا الخبير:

الماء المالح يهرى المعدة، ويخرج القىء معرقًا بالدم.

نظر الرجل إلى **عصفور أبو رضا** بقرف، وقال:

أنت هتفتى.

***

أخذ آدم طستًا من النحاس المجنزر، وراح يطارد الكلاب السوداء، يتسحب بهدوء، يكفى الطست فوق الكلب، يفزع الكلب، يهيج، يقلب الطست ويجرى، لم يفلح **آدم** رغم محاولاته الدءوب؛ تشم الكلاب رائحته عن بُعد فتطفش إلى الغيطان والجناين والأماكن المهجورة، نصحه **عصفور أبو رضا** بأن يذهب إلى عرب المقابلة، المقسومة، بالرشاح، نصفين متقابلين؛ هذا تحديدًا سر اختيار الغجر للسكن فيه، ليهربوا فى الاتجاه المقابل للاتجاه الذى تأتى منه الحكومة؛ سأل آدم، حسب النصيحة المخلصة لغير المأسوف عليه **عصفور**، عن **كُشاف** سيدة الغجر والكلاب والمكان، ليطلب منها شعرات الكلب الأسود، الموصى بها من الشيخ **الغريب**، لم يجرؤ أحد، من عُمار المكان، أن يدل آدم؛ ظنًا أنه من عسس الحكومة؛ برطل **آدم** امرأة غريبة تسرح بالفجل الورور فى أول البلد، ببعض المال؛ حلفته **بحبيبك النبى ما تيجيب سيرتى الله يسترك**. اقترب **آدم** من الخيام الفقيرة المبعثرة فوق رمال الجبل، على مسافات متباعدة، غير منتظمة، تسرح حولها أبقار، ماعز، خراف، حمير مصبوغة، كلاب، أطفال، نساء يفترشن الأرض بصدور ضامرة يرضعن صغار الضأن، ونساء يشعلن نيرانًا صغيرة من أغصان الأشجار الميتة، ونباتات الجبل الناشفة، يغرسن فى النار حِللا مهببة، وأباريق مياه وغلايات وأسياخًا حديدية، مناجل، خناجر صغيرة.

طرق **آدم** بابًا ضخمًا من الخشب، لبيت قديم من طابق واحد قصير، من الحجارة البيضاء والطمى، مسقوف بالخشب وجذوع النخيل والحطب، تمامًا كما وصفته امرأة الورور، خرجت، بعد انتظار طويل، امرأة طول بعرض، حجبت عن **آدم** نسمة الهواء، سوداء، يغطيها البياض من القدم حتى خصلات شعرها الحمراء المنسدلة على الجبهة، وخلفها رجل لا يتخير عنها، قال **آدم** برهبة :

ضيوف الكرام تتهان.

أنا لسه جاية من زيارة النبى ومعرفش حاجة.

قالت برجاء. طلب منها **آدم**، بعشم الغريب، شعرات الكلب الأسود، ظنت **كُشاف** أن **آدم** يهزأ بها، وتأكدت، بأنف كلبى لا يخطئ تقدير البشر؛ أن **آدم** لا يَمُتُّ إلى الحكومة بأية صلة؛ فتغير وجهها، أصبح أكثر سوادًا، ردحت **لآدم** وشتمته، بألفاظ وكلمات، لا يمكن ذكرُها أبدًا؛ مراعاة

للكياسة، وهددته بالموت؛ إن وزّه عقله الضلم، وفكر، مرة أخرى، أن يمر من هذا المكان، ولو فى الحلم.

رجع **آدم** خائفًا لا يرى أمام عينيه، لم ير وعد الجالسة أمام خيمتها، يخترق دخان المعسل وشاحها الأحمر، تترصد **آدم**، منذ دخوله العرب، مثل كل الخيام، عبر وسائط استخباراتية ليست حديثة، لكنها فعالة وغير مكلفة، إنها النسائم العارية من الصبيان والبنات، والكلاب الضالة الحائمة فى الفضاء.

تركت **وعد** بوصة الجوزة من بين أسنانها، وتلقت **آدم** بلهفة المشتاق، كانت القشة التى تعلق بها الغريق؛ سحرته باستكانة أنثى استنامتْ فى نعيم القهر؛ جذبته بعينىِّ قط يثبت فأرًا فى السقف، وقع الفأر، متأثرًا بالشعاع غير المرئى، بين يدىّ القط، تلقف يدها بحذر، قبّلها بارتعاشة محمومة؛ سأل:

فرج؟

فى السجن.

قالت **وعد** بفرحة المطمئن.

استخف **آدمَ** الشوقُ، حرّقه الجوى؛ فتخلى عن الحذر؛ لمعت عينا **وعد**، قالت:

خايفة عليك.

من حبك.

قال **آدم** بزهو المحبوب، رفعتْ وعد وجهًا بائسًا، وقالت:

من اللى اشرب ناره.

سرى فى جسم **آدم**، كدبيبِ نملٍ، خدرُ ناعم، وخزُ إبر مسنونة، أمسك قلبه خوف الانفطار، أخذته **وعد** باستسلام مغرٍ، ثمرة تفاح يانعة تطلب الأكّال. استغرق **آدم** فى وجه **وعد** الطفولى المقرون الحواجب، اختلجت عيناها بألق واعد، كان إيقاعًا مثيرًا لامرأة فاتنة، تحترف العشقَ فى أحضان طبيعة متوحشة، وكان رجلًا بوهيميًا، لن يصمد طويلًا، فى مواجهة صهيل الدم؛ الأضواء الباهرة المتفجرة من لطيفته الحمراء، تضغط على حواسه؛ فتخلق جوعًا حسيًا محضًا لكل ما يحمل تاء التأنيث، ولو مجازًا، يستحم فى ترعة الخرس البحرى أملا فى إطفاء الحرائق الداخلية، وإزهاق روح الشر المسيطرة عليه، وفكِ روحه المتيسبة، وصولًا إلى حال من التطهر المنشود، عبرَ قتل رغبات

الجسد الفانى المؤرقة، لكن **آدم** لم يفلح قط، فترات كمون مؤقت، ثم تتوالى الانفجارات، يدور فى حلْقة مفرغة، ينفخ فى قربة مخرومة، يظل طوال ليل كامل، بإيحاء منظم مستميت، يهدهد شيطانه، بالسكينة والرضا، بالترغيب والترهيب، ليأتى النهار، ولا بد أن يأتى النهار، مشتعلًا بحال من السعار:

ما قيمة الحياة بين خوفين.

سأل **آدم** نفسه من دون أدنى أمل، وضع عقله بين فكى سؤال وجودى جبار، لم يستطع الفكاك منه قط، لم يكن جرب أو حتى فكر، حتى هذه اللحظة، أن يعتلى ظهر أنثى غير **حواء**، زوجته، أى امرأة لا تحل له، رغم أنه من ناحية أخرى، لم يكن متدينًا بالمعنى الوهابى، أو زاهدًا فى أجمل ما خلق الرب، النساء، لكن الحياة سحقته مبكرًا، لم تترك له وقتًا لتلك الرفاهية، أصابه الخرس الجسدى، جرى، من **وعد** التى جرّتْهُ إليها؛ فى المرة الأولى، مرتبكًا تشيعه لعنات حرمانها القاتل، لعنات امرأة مطعونة بجلاء فى صميم أنوثتها، فى المرة الثانية، هذه، وحتى لا يُلدغ من الجحر نفسهِ، مرتين، ولأن الندم ظل يطارده، كلما تذكر نظرة **وعد**، وحرمانه، على الفرصة التى ضيعها بغباء منقطع النظير، خاصة أننا نعلم، و**آدم** يعلم، أن الفرصة لا تأتى، فى العمر، مرتين، لكن القدر، يكرر بعض الفرص النادرة؛ رحمة بالبشر الضعفاء، وأيضًا ليثبت، بما لا يدع مجالًا للشك، أنه يتحكم فى كل صغيرة وكبيرة منذ الميلاد حتى الموت، اغتنم **آدم** الفرصة السانحة، المهداة من القدر أو الشيطان، لم يهتم **آدم** وأسلم زمام نفسه إلى **وعد**، بأمل أن تعيد له فتنة عمر مهدور، سحبته **وعد** من يده، ونامت على الأرض؛ ركع **آدم** فوقها، أخذ ساقيها فى وسطه، نفضها بعنف الضعيف إذا ملك، نزع جلبابها الوحيد، اغتسل فى قدسها، أغرقها بمائه، وأغرقته بمائها، وصلا معًا، فى اللحظة نفسها، إلى ذروة حب عارمة، توافق مذهل، نزيه، ونادر أيضًا.

استرد **آدم** روحه المرحة، قال لـ**وعد**، بصوتٍ آتٍ من أعماقه الجذلة، ولغة لن تفهمها وعد، بسهولة:

ليس أروع من النوم مع امرأة تحبها.

انتفضتْ **وعد** بوحشية غجرية مكشوفة الوجه، وقالت:

والنبى تكلمنى عربى.

وشدته بعنف:

نفسى أخدك جواى.

وشهقتْ:

كُلك.

فامتلأ آدم حماسة وهِمةً، وعاود الكَرة مرات ومرات، أحس بزهوٍ مفاجئ، كمن كان فاقدًا، أو ظن أنه فاقد القدرة الرجولية، واكتشفها فجأة على غير توقع أو انتظار.

انتهيا منهكين من الفرح، نام **آدم** كليًا، لولا طيف من حس دينى يُشعره بالذنب، وخوف فطرى مجهول المصدر؛ ينبت فى أعماقه، يؤنب ضميره الذى استيقظ ببطء وإصرار، لأن مفهوم الخيانة لم يصل إليه بعدُ، أو لم يتأصل فى فكره بصورة صحيحة، فليست الخيانة، ويجب أن نكون حَسِنِى النية بقدر كافٍ، حتى يمكن أن نتفهمَ، كيف يفكر **آدم**، ثم يفكر، ثم يقرر، أو، يُقرر له، أن يخوض هذه التجربة الفريدة، وينجو، مع ذلك، من تأنيب ضميره، أو عاطفته الدينية الجياشة، وقناعاته الموروثة من قوم صدقوا ما يُقال عنهم، أو بقليل من الصراحة والشجاعة، دونما الخوف من الاتهام الجاهز بسوء النية، إنهم يكذِبون الكذبةَ ويصدقونها، بأنهم متدينون بالفطرة، رغم أنهم يصلون كما يكذبون، ويكذبون كما يتنفسون؛ محافظين على الشكل لا المضمون، فليست الخيانة، كما يرى **آدم**، أن ينام مع **وعد**، وإنما الخيانة أن يعرف الناس؛ لأن **آدم** قطعًا، وببلاغة لفظية ربما تخلو من المعنى، أو تحمل مضمونًا مختلفًا؛ سيجد مبرراتٍ لا حصر لها، ليريح ضميره الذى استيقظ فجأة، حتى قبل أن يغتسل من **وعد**، وينصرف عنها نهائيًا، كمن أُلقى نائمًا فى بئر ماء باردة؛ فانتبه مذعورًا على شفا حفرة من النار، من غير منقذ؛ احتمى **آدم** بأول مسوغات الخيانة، بهذا المفهوم، وهو **حواء** نفسها، والجوع العاطفى القاهر، وهذا المسوغ نفسه الذى سيدفع **آدم**، فى آخر الرواية، إلى الاندفاع الأعمى، إلى **وعد**، آملًا أن يكون **فرج** مسجونًا، أو بضربة حظ، ميْتًا، من دون أن يفكر **آدم** لحظة واحدة، أنه سينجو من رصاصة وحيدة، تصيبه بصممٍ مؤقت، يجعله لا يسمع **وعد** وهى تكلمه بلهفة، رصاصة حبيسة طبنجة **أبوهمام**، منذ حلَفَ **آدم** على المصحف بأنامل مرتعشة، وعقلٍ صغير لا يفهم أن للخيانة عمقًا أكبر، هو خيانة الله الأكثر غيرةً على محارمه، لم يخطر ببال **آدم** قط، أنها دقة بدقة ولو زدتُ لزاد السقا، لأن **آدم** مطعون فى رجولته بجلاء، من قِبل كائنات الخفاء الذين لا يستطيع رؤيتهم فضلًا عن الثأر لعرض مستباح، انساق، جائعًا، وراء اللحظة الفاتنة، فثمة قانون فطرى بسيط، إذا وُجِدَ أكل فثمة آكل.

صحت **وعد** مشرقة مثل شمس، زهرة برية مفعمة بالحياة، تخلق هالة من البهجة والحسن، فراشة لا تستقر على الأرض، امرأة تحيا من أخمص القدم حتى تاج الرأس، تحمل ماء فرحها الليلى، قلب صغير طافح بنشوة الارتواء، متوحشة صغيرة بشعرها الأسود المستحم، تحت تربيعة حائلة وجلباب على اللحم، تضوى منه دوائر برونزية فى ضى الشمس، حملت **وعد** السلةَ التى وضعها عمال **أحمد باشا حمزة** وزير التجارة فى الحكومة الوفدية، أمام الخيام، لتسرح، مع بقية البنات، **منى ونصرة وسماح**، لجمع الياسمين، الذى يُستخدم لتقطير العطور، فى مصنع طحا، التى غزت باريس، أيقظت **وعدُ آدمَ**، تعمدت، رغم جرؤتها، أن تسبق الجميع، ولتتخفى أيضًا عن عيون العجائز التى لا تنام، رغم أنهن لا يتكلمن الآن، فى زمن سابق لم تكن تجرؤ على ذلك؛ لأن الخبر يصل إلى **فرج** قبل أن يكون خبرًا؛ رغبة فى نيل الحظوة لديه من عجائز، لم يعد عندهن إلا الخبرة، يترتب على ذلك أفعال شنيعة تصل حد إزهاق أرواح، ربما تكون بريئة، بسهولة يُحسد عليها **فرج**. أخذت **آدم** من يده كطفل برىء، فى راحتها الهامسة، إلى سكة الوزير، التى غنت فيها **ليلى مراد: اتمخطرى واتميلى يا خيل**. وراحت تتكلم ببساطة عن حياة بؤس سعيد، سعادة مَنْ لا يعرف غير هذه الحياة، أو مَنْ لا يملك رفاهية الاختيار، أراحته كلماتها لحظات، لكن الزهو انطفأ بمجرد أن بدأت الكلام، أحس نفسه ضئيلًا إلى جوارها، هى التى تعيش فى الهواء، تقرر ما تعرف، وتعرف ما تريد، هى أمه المفتقدة منذ طفولته الضائعة، تفرض وصاية قاصرة، تخطط له، تخطفه إلى مجهول لا يرغب، أو بالأحرى، لا يعرف، ماذا يرغب، حتى يقرر، دقت فى داخل **آدم** نوقيس خطر داهم، تقلص القولون وانبعثت من أعماقه موجات حقد أعمى، تحركت لطائفه الأثيرية عكس عقارب الساعة فانتكس، زاد الهمُ بأنه لم يفصح، لا يعرف **آدم** كيف يفصح.

برقت عينا **وعد** ببريق روح معذبة، قالت:

إحنا غلابة، الخيمة على ضهرنا، كل يوم فى بلد، يوم نعيش عيشة الملوك، ويوم منلقيش الجاز اللى نعمر به الباجور، فرج ينام بالنهار ويسهر الليل، لا شغلة ولا مشغلة، نص عمره فى السجن، قرفت، وما باليد حيلة، مكتوب، أنا خايفة عليك، فيه حريم تشتغل الرجالة، لكن احنا نسرق، أمى، الله يرحمها، كانت تحط المقص بين صبعينها، تقطع سلاسل الدهب والخواتم والغوايش، أمشى وراها عشان لو اتمسكت، أروح أبلغ الجماعة، نلِمّ الغلة، والرجالة يصرفوها

عن طريق النقطة، وفى ليلة ضلمة، دخل فرج عليّ؛ حسيت زى ما يكون سيخ محمى دخل فىّ، نار قايدة، أمى ماتت من الحسرة.

وأزاحت خصلات شعرها الفاحم عن وجه بائس:

زمان، كان واحد يلف ورايا، عمره ما اتكلم، بعدين اختفى؛ حسيت إن روحى راحت، رقدت عيانة، فرج شخط فىّ، هتفوقى لنفسك ولاّ أتويك زيه.

***

تعب آدم من انتظار ما لا يأتى، فسعى إليه، يريد الانصراف ولو إلى النار، أقسى ما يعذب **آدم**، اليقين المدمر لكل خلاياه العصبية، وروحه المعنوية، ودفاعاته النفسية، يقينه بأن كل ما يفعل دون جدوى، بعد رحلات العذاب المضنية، التى حُسد عليها من قِبل نساء طامعات، ومحاربة شياطين النفس المحزونة، وشياطين الخفاء الذين يرونه من حيث لا يراهم، يا للفداحة أن تحارب عدوًا لا تراه.، خطا **آدم** ذاهلًا مشلول الفكر، بخطوات حذرة، على مدق رفيع وسط فراغ هائل الاتساع من الرمال، لا يعرف **آدم** أين يمضى، ولا ماذا يريد، يمشى بهمة أسير، يريد التحرر من نفسه، يتخلص من الدنيا كلها، الدنيا التى تؤوى كل هذا الشر المرئى، وغير المرئى، لأنه صادر عن كائنات خفاء شريرة، أو لأنه يصدر عن توقع أحداث مستقبلية لا تحدث أبدًا، بالأحرى يكمن فى العقل، متحينًا الفرصة المناسبة، ليخترق حجب الغيب، تقدم **آدم** مرتجفًا، يقدم رجلا ويؤخر أخرى، البيت موحش بدرجة مخيفة، مظلم، فى حجرة داخلية مفروشة بحصر من السمار على أرض عارية، حوائطها جرداء مثبت عليها رفوف خشبية، مرصوص فوقها زجاجات كثيرة، مصفوفة بانتظام تدريجى، حسب التاريخ الدقيق باليوم والساعة، فى كل منها قطرة **دم** حية.

السلام عليكم.

قال **آدم** بحلق جاف، قبل أن ترى عيناه أى شىء.

وعليكم.

رد صوت نسائى واهن، هو الصوت نفسه الذى سمعته **حواء** فى منامها، لكن **حواء**، كالعادة، لا تفصح، استطاع **آدم** بصعوبة، أن يميز صاحبة الصوت، عجوز ضامرة، بعروق زرقاء نافرة، مثل ساحرات الأساطير، تتربع الشيخة شيخة صامتة، فى الحجرة شبه مظلمة، حولها أعوان صامتون، نظرت إليهما بعين تخترق الحجب، قالت:

اجلسى يا حواء يا بنت حواء.

جلستْ **حواء** أمامها ترتجف، أخبرتهما العجوز تاريخ **حواء** كله، حتى الذى لا تعرفه **حواء** نفسها، بداية من طفولة البؤس حتى حلم الأمس المرعب، الصداع والاكتئاب، التحرش الجنسى من

اللامرئيين، خروشات السرير، اختفاء الملابس الداخلية، تخبط الأثاث، الأحجبة المدفونة فى أرجاء البيت، وما فيها من صور غريبة، نجوم، طلاسم، مربعات ودوائر، آيات مكتوبة من الشمال لليمين، ومن أسفل لأعلى، بحروف غليظة دموية، أخبرتها عن اليأس وكُره البيت وكُره آدم، أوقدت نارًا صغيرة، رشت فوقها بخور الحلتيت، بدأت فى قراءة **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ* فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ*إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ**، بصوت واضح، خفت الصوت تدريجيًا حتى اختفى تمامًا، صار همهمات:

أقسمت عليكم بيوم البعث والنشور، بحق النار والنور، الظل والحرور، حاجب الجن فى الطيور، رأينا الشيخ الكبير، القاعد فى السرير، على رأسه الإكليل، فى حجره الإنجيل.

ومدت العجوز يدها فى عمق سحارة خشبية فارغة، أخرجت ورقة بيضاء وقلم كوبية أحمر، رسمت دائرة، همهمتْ، ظهر بداخل الدائرة وجه بشع، قالت لـ**حواء:**

بصى.

لم تستطع **حواء** الذاهلة النظر؛ شخطت العجوز فى **حواء** أن تثبت عينيها فى الورقة، التمعت عينا الشيطان الورقى، فلطمتْ **حواء** وجهها وصُرِعتْ، أمسكت العجوز بالورقة وطوتها بعناية فائقة، أربعَ طيات متعامدة، وثلاثًا متقاطعة، صارت حجابًا مثلث الشكل، أعطته لـ**حواء** قائلةً، كأنما تحدث شخصًا آخر، ليس **حواء** نصف الحية، نصف الميْتة، فى لهجة رواقية غامضة:

من اليوم لن يضايقك أبدًا، بشرط أن تضعى هذا تحت رأسك ثلاث ليال قمرية، ثم تحرقينه وتستحمى بمائه.

أمّنتْ **حواء** على كلام العجوز بهزة رأس غائب، رأس شارد فى مكان آخر، ليس على هذه الأرض، تمتمتْ العجوز بآيات وتعاويذ سحرية وتعازيم؛ تغيرت ملامح حواء، ظهر وهج جهنمى فى عينيها، بدا كأن شخصية أخرى تطفو على السطح، قالت العجوز:

ما اسمك.

لم ينطق أحد، قالت العجوز:

لماذا تؤذيها.

أجاب صوت وقح:

أنا أحبها.

بدا أن صراعًا نشب بين إرادتين، نهرته العجوز بشدة، قال:

إنها معشوقتى، ولا أمل فى تطهيرها لأسباب ترجع إليها شخصيًا.

نهضتْ **حواء** فجأة، وضعت يديها على حنجرتها، بدأت تخنق نفسها، صار وجهها قرمزيًا، جحظت عيناها، فقامت العجوز وجماعتها بإمساك **حواء** وإبعاد يديها عن عنقها، صارت أكثر عنفًا؛ تمزق ملابسها كلما تمكنت من تحرير يديها، أمسكوها جيدًا، أخضعوها لأسوأ عملية حجامة تتعرض لها امرأة على الإطلاق، أجروا لها عمليات تصفية معقدة بواسطة التشريط بآلات حادة، وكاسات دم هوائية ساخنة؛ بهدف إخراج الشياطين من جسدها، ثم قامت العجوز بتجميع الجن الذى يسكن **حواء**، من بقية الجسم ومراكز الإحساس والسيطرة، من مكمن الشيطان أو الشر بالمخ، إلى إبهام الذراع اليسرى، وراحت تقرأ **اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ**، وتشير من أعلى إلى أسفل حتى رأته مُتجمعًا تمامًا، أخذ أحد المساعدين السرنجة وشك الإصبع وألقمه فم الزجاجة بسرعة خاطفة؛ حتى لا يهرب الجن، أغلق الزجاجة بإحكام، أعطاها **لآدم**، أوصاه، إن أراد أخذها، بدفنها تحت الأرض، أو وضعها فى الثلج ليحترق الجن.

نامت **حواء** على ظهرها فوق الأرض، جلدها شمعى بارد، وجهها قناع موت لا أثر فيه للحياة، تهذى بصوت مشجوج، تهرب من كلاب سوداء بشعة بأحجام خرافية، وجوه منكرة، تطاردها مطاردات لا تنتهى، فى مبارزات جنسية موغلة فى الإثم، تصعد منحدرًا هوائيًا، تهوى، دفعة واحدة، فى هوة سحيقة بين الموت واللاموت، تسير داخل أحشاء إنسان حى، محفوف بأشجار وحشية، غابات شوكية، طيور مفترسة تتخطفها، ثعابين تنهشها، أيقظتها العجوز بطريقة مبهمة، أحستْ **حواء** بخفة رغم الإرهاق العنيف الذى تعرضت له، سارت منطوية تحت جناح **آدم**، الذى يرزح تحت وقع سنابك خيل مجهولة، لعالم شاسع انفتح على مصاريعه، دفعة واحدة من دون كوابح، يحلق بهما الأمل نحو الخلاص، بينهما وبين الشفاء، كما يظنان أو يتمنيان، خطوة، أسند **آدمُ حواءَ**، بكل ما يملك من حنان، لتركب سيارة الأجرة.

فى منتصف الطريق أشارت امرأة منتقبة، سامقة كعود زان، ممشوقة بطراوة جسم لين، توقف السائق، قالت:

المعدية يا أسُطى.

ركبتْ على الكرسى القلاب الأول، أمام **آدم** مباشرة، **حواء** بجانبه، تستجمع نفسها التائهة، فى حلم غريب، تشم رائحة لحم يحترق، لحم الوجه الشيطانى المشوه الذى رأته فى الدائرة البيضاء، واقعةً بالكامل فى براثن الغيب المطلق، منطقة الاستحواذ العمياء القاهرة لأهل الخفاء، نظرت المنتقبة بعينين فرعونيتين مشروطتين بكحل الإثمد الفاحم، عينين فادحتى الحسن والغواية، لم ولن يرى **آدم** مثلهما أبدًا، فى حياته الماضية أو المستقبلية، أو حتى بعيون خياله الجامح، داخ رأس **آدم** من هول ما رأى، من الجمال الفاجع، المستخفى تحت نقاب العفة، ركبة **آدم** الجالس فوق القلاب الثانى، خلف المنتقبة مباشرة، تلتصق بها، ذراعاها البضتان وظهرها المُعَبد ملك عينىّ **آدم** النهمتين، يداها البيضاوان، أصابعها الناعمة تعبث فى مخيلته، عيناها الناطقتان تهمسان بالتبادل مع لفتاتها المقصودة، المحسوبة بدقة مدروسة، ألهبت الشقيرة الحمراء أسفل عقب ذنب **آدم** الغارق فى عَرف الشهوة؛ ليسرح **آدم** فى حلم طويل، يحتويها فى معركة عنيفة مكبوتة من جانبه، مستسلمة من جانبها، كان فاتحًا وكانت مدنًا، كان غيثًا وكانت صحارى، نسى **آدم** نفسه و**حواء** والسائق والركاب، امتدت يده بطريقة تبدو لا إرادية، اقشعر بدنه وارتعب؛ تحسبًا لما يمكن أن يحدث، قد ترفض أو تصرخ، تفضحه أمام زوجته وأمام الآخرين، يصير فى لحظة وليمة دسمة لخمسة عشر راكبًا، منهم زوجته، **حواء**، التى لن ترحمه أبدًا فى تلك الحال، لكن للغرابة، لم تتحرك المنتقبة، بل فعلت ما هو أكثر، وهو ما لم يفهمه آدم قط، فعلت ما يُعد تشجيعًا على الإقدام، فى عُرف الحالات المشابهة، نظرتْ إليه بطرف عين جاذبة، بوهج لا يُقاوم، جذبت النقاب لأسفل قليلا ليرى **آدم** خدًا أسيلا، مضيئًا للدقة، ونظرة داعية، دعوة صريحة غير مبهمة، اندمج رغمًا عنه، سخنت أعضاؤه المعنية، انتفخت بماء الحياة، حصل الانقباض العاصر؛ استعدادًا للحظة الانبساط المريحة والرعشة المجنونة، فى تلك اللحظة نفسها، التى لا تُحسب من العمر، وقبل النهاية المرتقبة، المرجوة بشدة، فُجع **آدم** بصوت السائق المحتج:

المعدية يا حاجّة.

هَمّتْ المنتقبة بالنزول، سلطتْ على **آدم**، الذى لم يكن فى وعيه تمامًا، نظرةً ملغزة، همستْ فى أذنه بصوت محمل بكل تراث الجنس الناعم:

قال عفريت فى إزازة قال.

حين أفاق كانت قد تبخرت.

***

صُب الشاى على بال ما اخلص.

قالت **حُسنة** بصوت يأتى من عمق القاعة الجوانية، وانشغلتْ بطقوس حمامها.

ركن **آدم** ظهره إلى الحائط، مشغول البال، يفكر فى امرأة حياته المسلوبة بفعل ما لا يُرى، حتى لو لم يصدق، لا يدرى ماذا يفعل، سقط **آدم** تمامًا فى ليل العتمة الذى يسبق الفجر، يسبق النور، الحيرة، هذه هى الكلمة الأقل تعبيرًا عن حالته، لكن اللغة أو مَنْ يستخدمها، وهو الراوى، لم يفتح الله عليه بأفضل وأدق منها، الحيرة تقتل **آدم**، كما تقول البلاغة، لا يدرى **آدم** كيف يتصرف إزاء امرأة تشعل الحرائق بلا مقدمات، وتسأل ببراءة حقيقية:

ماذا حدث.

تختفى فجأة وتظهر كما تختفى، كأنها لم تترك الدار، تنام أيامًا متواصلة، تصحو مرعوبة؛ تنكر **آدمَ**، زوجَها، الذى يمسح عرقها بيد رحيمة؛ تفزع منه، تصرخ فى وجهه:

أكرهك.

يموت من الخزى والقرف؛ **آدم** لم يعد قادرًا على قربها، حاجز شفاف يقف بينه وبينها، يصيبه الذهول والسعار الجامح، يرى كل النساء خرائب صالحات للعفن، يقضى ليالى سرمدية على سيف النقمة، يفاجئه شروق الشمس مستحمًا بالدخان والنور، وزائرات الأحلام، آلاف الحلقات تلتف حول رقبته، تضغط على أعصابه، تغرب عيناه بالهمّ، كيف يواجه الناس إزاء التناقضات المرهقة لسلوك **حواء** الذى يمتاز بالغموض المطلق، بين الضحك والبكاء، الاختفاء والظهور، وعجائب الأمور؛ لدرجة أنها تُشاهد فى البيت، فاردةً ذراعيها مثل طائرة شراعية توشك على الهبوط، ترتطم بالأرض مُحدِثَةً ضجةً هائلة مفضية إلى موت محقق؛ لولا أرضية طينية ومراتب مطروحة للجفاف فى الشمس، تحلق فوق جسمها المطروح على الأرض وتضحك، تنبش أظفارها فى الطين، تمضغه بأسنان كالحة، تغير شكلها تمامًا، فقدت عينا حواء تألقهما السماوى، تراكمت حولهما هالات سوداء، تصحو من نومها أكثر شرودًا، تكلم الميتين، تقتلها الأحلام التى تتحقق، والتى لا تتحقق، تتحسس موضع عفتها، تجد دماء غزيرة، وقطعة لحم حمراء برأس كلب وأذنى حمار، تنبش الأرضَ بحثًا عن أجنة لم تولد، تجول فى البيت عارية، تكنس التراب بشعر ترعى فيه حشرات، تسكن جسمها الذى كان يضوى فى ظهيرات الأيام القائظة، يتلصص عليها الأشقياء من الأسطح المجاورة، يتخفون وسط أكوام الحطب وأطواف الجلة، تطلق جارات السوء، اللاتى كن يحسدنها،

ألسنة حدادًا، تخرج **حواء** فى الليل إلى الأطراف المهجورة، تستحم فى الترعة تحت كوبرى أبو حليمة، تعود حافية بجوار السكة الحديد، تنظر بعينين ميتتين إلى فراغ لانهائى، تقع عينا **حواء** على آدم؛ تموت من الخجل، تخبئ عريها بأى شىء، تنظر فى وجهه بانكسار، يحتويها **آدم** فى صمت حزين، حائر، لا يعرف كيف يفعل، تود **حواء** لو تنشق الأرض وتبتلعها، تعتذر منهارة، يغسل **آدم** قدميها، يمشط شعرها بمشط مخصوص من العاج، فى شمس الضحى الدافئة، تبدو طفلة بوجه ملاك صغير، يخصف عليها من ورق الجنة، ليخرج من عدنٍ إلى أرض الشقاء، يحمل فوق ظهره عمرًا من الوهم الدنيوى القبيح، قلب **آدم** الذى لم يعرف الكرهَ قط، أضناه حب لا شفاء منه، يقف **آدم** شامخًا على حافة الأبدية، يكافح نفسه الباطنة فى سبيل الأخلاق الفاضلة، يركن إلى خزانة الماضى، يُخرج منها أمارات ناصعة تقول إنه، ذات يوم، عاش تلك الحياة، مع هذه المرأة، **حواء**، زوجته التى ترقص فى ساعات الصفاء الأولى فوق ماء الحياة، حسناء أمازونية مسها نور الخالق، تعيد إلى **آدم** سخاء العالم الجنونى الأول، قبل أن يسقطا، **آدم وحواء**، فى ملكوت الطين، كانا مملوءين بشهوة الخلق، جلال الانتصار، حين ينتهى من زرع بذرة الحب فى رحم امرأة يحبها، يحبها بجنون، يحب كل ذرة فيها، يقبِّل منابع إلهامها، يدغدغها بأسنان حانية، يطوف حول وجهها، يهوى ببطء رهيف إلى العنق، يسبح فى النهر، يعيدان معًا، **حواء وآدم**، كتابة تاريخ الحب المنسى فى أروقة الزمن، تبدو **حواء** طافية فوق سحابة من فرح، كائنًا نورانيًا شفيفًا، يعودان، **آدم وحواء**، من فرط المحبة، كائنًا واحدًا مكتملًا، فرخين أزغبين فى ربيع الدنيا، يهتزان فوق قارب شراعى يطفو فوق لجين الماء، ينعمان بنعمة الرب المذهلة، التى لا تحصى، أضناه التذكر فانتوى الرحيل.

فاجأته **حُسنة**، من عمق الدار، بصوت يعاند القدر، وقلب يقرأ **آدم** من الداخل:

الأرض أرض الله فيها الشجر طارح

المنجا جنب العنب، حتى اللمون طارح

والميه بتروى الحلو والمالح

مالك يا شجر اللمون كدا مايل

جيت أعدل اليمين لقيت الشمال مايل

لو الآه تريَح كلَ قايِلها

لأمضى طول الليل أقولها.

تراجع **آدم** عن نية الرحيل، ظل جالسًا، دامع العينين، مغسول الروح برائحة المورد والزعفران والكافور والمسك، التى فاحت فى أرجاء الدار.

أطفأتْ **حُسنة** وابور الجاز الوشاش، ماركة بريموس، الذى يدفئ القاعة أثناء الاستحمام، خيم صمتٌ ملهم، ثقيلٌ لا يجرحه سوى صوت الكوز، فى البستلة الصاج، التى تغرف منها الماء، ترغى ليفة النخيل بالصابون المعطر، تدعك، بمحبة متناهية، جسمها بزيت الزيتون المرقى، تلتحف بشكيرًا أبيض، تجلس على كرسى الحمام الخشب، تمشط شعرها بفلاية كبيرة من سن الفيل، ثم تدخل فى قميص أبيض إيد ورِجل، وجلباب بيتى بسفرة، تعصب رأسها بتربيعة بيضاء يتدلى منها الترتر وحَب النجف، تلف رقبتها وصدرها بطرحة بيضاء سابلة، تحبك المَلَس على جسمها، تطمئن على هيئتها فى المرآة، يطل عليها وجهٌ باسمٌ لا عمر له.

شربَ **آدمُ** رشفة شاى، سحب نفسًا عميقًا من سيجارة محشوة، وهو يتأمل النار، تخبو رويدًا رويدًا؛ تساءل فى سره:

كيف تدخل النار فى الطين.

جاوبته **حُسنة**، من الداخل؛ قبل أن تدخل فى صلاة طويلة:

الشِعب منى طرح وأنا بناره انكويت.

سرحتْ **عينا** آدم وراء الأفق، إلى الضفة الأخرى، كان الماء، فجأةً، أو صدفة، رغم أنه لا شىء يحدث صدفة أو فجأة، ظهر شاب جماله لا يُقاوم، قال **لآدم:**

ما يُضنى الغريب.

رد **آدم** مُنَوَمًا:

امرأة فى صحراء، جمالها ليس من هذا العالم، تمتلكنى ولا أمتلكها.

نظر الدليلُ بخبثٍ إلى قمة الجبل وأشار بطرف إصبع لا يُرى:

هناك.

وسار؛ تبعه **آدم** مسحورًا، صعد سلالم رفيعة متعرجة، منحوتة وسط صخور الجبل الملونة الحادة، بالكاد تسع شخصًا واحدًا، **آدم** خلفه لا تثبت عيناه على شىء، انزلقت قدم **آدم**، حذره الدليلُ بنظرة

زاجرة، أشار بطرف عين؛ نظر **آدم** فى الأسفل، رأى مغارة ذات عمق أسود؛ صُعِقَ **آدم**، قال الدليل ضاحكًا:

اللى غرق فى الحب، إن مات ملوش ديّة.

لعن **آدم** اللحظة الرعناء التى استسلم فيها لجميل لا يقاوم، فضحه الدليل بنظرة مباغتة:

واللى خلق الخلق يعرف ظاهره وخافيه.

وحثه، هازئًا، على التقدم:

سبعُ درجات هى الأخطر على الإطلاق.

قال الدليل.

لم ينحج **آدم** فى تحديد الوقت بالضبط، انعدم إحساسه بالزمن، حين بدأت الرحلة كانت الشمس فى كبد السماء، والآن **آدم** أعجز من أن يعرف مستقرها، لم يتوقفا عن الصعود لحظة واحدة، انتهت الدرجات السبع التى لم يرها **آدم**، لم يعرف كيف ولا متى انتهت، شدّ الدليل على يد **آدم** المرتعشة، بقوة أوجعته، وقال:

البحر واسع قوى والكل غارقان فيه.

وظل سائرًا و**آدم** خلفه، وصلا قمة الجبل، انبسطت مساحات صفراء لا نهاية لها، تتخللها أشجار التين والزيتون والنجم الصحراية، وبيوت حجرية عالية الأسوار، تململ **آدم** أكثر من مرة، تورمتْ قدماه الحافيتان، بعد أن خلع النعلَ على باب الجبل، أسوة بالدليل، نظر الدليل إلى **آدم**، وابتسامة شامتة ترف على شفتيه، وقال:

فات الكتير.

كرر ذلك سبع مرات؛ برك **آدم** من التعب، قال الدليلُ بنعومة بالغة:

مفيش حلاوة من غير نار.

صرخ **آدم:**

الله الغنى.

فقال الدليل مستفِزًا:

دخول الحَمّام...

اغتاظ **آدم** من الدليل الجميل الغريب، وحجته القوية، وبديهته الحاضرة، وثقته المفرطة بنفسه، ابتسم **آدم** لاستمالة الدليل، انبسطت أسارير الدليل وضحك، ارتعب **آدم** من هول ما رأى، كان فم الدليل مغارة، خاليًا ومظلمًا، الوجه الأبيض الجميل عجوزًا محفورًا بالأخاديد، العينان مجرد خرزتين، الأنف مجرد ثقبين، أخذ الرعبُ **آدمَ**، كظم فى نفسه، حسب معايير رجولية تمنع، ليس الضعفَ الإنسانى، بل إظهاره أمام الغرباء، توقف الدليل، مسح حبات عرق وهمية عن وجهه المغضن، قال بالإشارة:

وصلنا.

تنفس **آدم** الصعداء، استرد أنفاسه الهاربة، جلس مقرفصًا على حجر، طرق الدليل بابًا عاليًا بعلو السور الحجرى المرتفع بقامة رجلين طويلين، خرج خادم أسود، يلبس شالًا أبيض وجلبابًا أبيض، قال:

تؤمر يا سِيد.

الإذن.

قال الدليل، بخشوع:

تفضل.

قال الخادم بأدب وأفسح الطريق.

همّ **آدم** بالدخول وراء الدليل، قال الخادم بعينين ناريتين:

هو فحسب.

صرخ **آدم**:

وأنا.

أطلبُ لك الإذن.

قال الخادم، واختفى خلف الباب الضخم.

ظلّ **آدم** مرتعدًا، رغم العرق البارد المتصبب من أنحاء جسمه، غابا طويلًا فى الداخل؛ انتهتْ فى **آدم** كل ذرة إرادة أو هِمة، تحطمتْ عزيمته تمامًا، تملكه يأس مطبق، بعد وقت لا يعرف **آدم** طال أم تصوره طويلًا.

جاء صبى أمرد بلون الحليب، ملفوف بالبياض، قال بأدب جم:

تفضل يا سِيد، السيدة تعتذر عن سوء الأدب.

داخل السور انتثرت أشجار المانجو والرّمان والأعناب فوق أرض خضراء ناعمة، سارا فى ممشى طويل، محفوف بصفين من نخيل سامق، تتدلى منه عراجين بلح حمراء وصفراء، تشبه قناديل تضىء فى النهار والليل، تلمع وسط بِرَكٍ طبيعية، تستحم فى مائها الفضى وصيفات ناعمات كالحرير، بيضاوات كالقمر، يلعبن تحت ماء النافورات العذب، أخذ **آدمَ** المنظرُ، ارتبك، كاد ينكفئ على وجهه، ابتسم الغلام:

ما خفى كان أعظم.

تعجب **آدم**؛ ماذا يمكن أن يرى بعدُ، أقل ما توصف به أنها جنة فى صحراء، كاد العطش يقتله؛ مدّ يده يغترف من نهر جارٍ؛ كشر الغلام:

فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي.

فانساب الماء من بين أصابع **آدم** الخائفة، بعد أن لامس فمه، تنبه لقرص الجوع، مد يده ليقطف تفاحة، قال الغلام بهدوء الواثق:

وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي.

ركب **آدمَ** نكدٌ خالص؛ قال الغلام:

وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَار.

ومضى فى طريقه من دون أن يلتفت إلى توسلات آدم الجائعة، العطشى، ترك الغلامُ ستةَ أبواب مغلقة على أسرارها الأزلية، المرعبة حسب الروايات القديمة، وطرق الباب السابع فانفتح من تلقاء نفسه، سلم آدم لفتاة شمعية عيناها آسرتان، أغلقتْ الفتاة الباب ومضتْ بـ**آدم** إلى نهاية الرواق، وقفتْ أمام عرش عظيم منصوب على سرير الملك، قدمتْ **لآدم** كأسًا صغيرة فى قعرها سؤر شراب، من دون لون ولا رائحة، تركته يعانى وحدةً باردةً، فى أقصى درجات البرودة المرعبة، مع تماثيل نابضة بالحياة لملاك الرب المجنح، وحوريات البحر المقدسة، وفرسان على أحصنة طائرة، وصور مجسمة معلقة على حوائط وهمية من البلّور، تعكس صورًا وأشكالًا لكائنات خرافية مائية، وديعة وداعة الذئاب الجائعة، تتلوى بفعل أمواج زرقاء عاتية، تتكسر على الحوائط الشفافة، ونافورات تُخرج مياهًا ملونة بألوان الطيف القزحية، وقبة سماء ينيرها قمر ليس من أحجار، وسجاد تغوص فيه الأنفاس.

لم يعرف **آدم** صورته المنعكسة أمامه، رفع الكأس إلى فمه، ارتشف رشفة، نزلت فى جوفه بردًا وسلامًا فى لظى حرب، لذة لم يعرفها فى حياته قط، انبسطت أساريره رغم الخوف والترقب، لم يشعر بها حينما وقفتْ خلفه، ظلت تراقبه مبتسمة، وضعتْ يدها على كتفه؛ فاقشعر بدنه، وارتعب، قالت بلطف:

تأخرتَ كثيرًا.

لا أعرف.

قال **آدم** مرتبكًا.

سنين.

قالت بعتاب.

شهق **آدم** من الخضة؛ قالت:

الدليل هو الذى أخرك.

وفتحتْ كوة صغيرة فى الحائط، وأشارتْ:

انظر.

رأى الدليل معلقًا من قدميه، مكمم الفم، وعبدين أسودين يجلدانه، قال مشفقًا:

ماذا جنى.

قالت:

عصى أمرى.

أيقن **آدم** بالهلاك، جلس على الأرض فابتلعه السجاد، قال بحلق جاف:

فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ.

مدتْ يدًا ناعمة، أخذته برفق:

أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ.

سلم كليًا؛ جذبته إلى سرير المُلك، ألبسته تاجًا من أزهار ذهبية وزمرد وياقوت، سجدت أمامه، ألجمته المفاجأة وازداد حيرة، أرخت عينيها لتتيح **لآدم** مزيدًا من التطلع إليها، من دون خجل أو حرج؛ هَالَهُ حُسنُها، أقل ما توصف به أنها امرأة ليست من هذا العالم، امرأة هى الفتنة، امرأة المنامات الساحرة، سرح مرة أخرى فى وهج البحر، انتشى بفعل مشروب السحر، ارتشف سؤر

الكأس دفعة واحدة؛ فأحس حالًا من الامتلاء، نظر فى عينيها وسقط على الأرض، راح يهرف بألسنة كأنه مصروع، يقاوم قوى قاهرة لا ترى، انتفض مرات قبل أن يفيق ويفتع عينيه برعب، ارتعش ارتعاشة قاسية، تفزز، تحمم فى عرقه، رفع عينيه إليها، ألهبته بنظرة انتصار حاسمة، امرأة خارقة، مدت له يدًا هلامية تعلق **آدم** بها، نظرتْ بتحدٍ فى عينيه مباشرة؛ رأى امرأة النقاب، العينين نفسيهما، قالت:

أى امرأة تشتهى.

قتلته الحيرة:

أى امرأة.

قالت بثقةٍ:

أى امرأة.

شرد **آدم** يعانى سكرات حب مفاجئ، حط على الأرض، خطرت بباله كل نساء الأرض، نساء اشتهاهن فى صباه ومراهقته، نجمات مضيئات فى سماء الفن العالمية، راحتْ تتشكل بالمرأة التى تخطر بباله فور أن تمر بخاطره، بالسرعة نفسها، حتى خطرت بباله **حواء** فى مجدها الزائل؛ فكشرتْ بغلٍ، نظر **آدم** إلى الدليل فأيقن بالهلاك، ساق فى عند اليائس:

هى حواء، لا أريد غيرها.

فساقتْ فى الدلال، صرخ فيها، تغضن وجهها، صارت عجوزًا شمطاء، قالت:

لو نظرت بداخلك لعرفت.

نظر بداخله فلم ير شيئًا، قالت:

فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ، أنا التى أسكنك، أنا التى تعذب حواء، وفتحت طاقة فى قلب الجبل:

انظر.

رمى عينيه فى العمق؛ توقفت أنفاسه، رأى **حواء** عارية تحت رجل له يد كلبية؛ قفز فى الهوة كى ينقذها؛ شح الهواء، اختنق؛ صرخ بصوت محبوس، انتفض يفك اشتباك ذراعيه المتصلبتين حول **حُسنة**، التى تمسح وجهه بحنان، وتهمس:

مالك يا قلب أمك.

فتح عينيه، تحسس بللًا لزجًا فى سرواله وانتصابًا ذابلًا؛ نظر إلى السماء يدارى كسوفه، حاول النهوض، لكن جسمه خذله؛ فأمسك بالماشة يسوى النار ويحدق فى الأرض.

صبتْ **حُسنة** القهوة فى فنجان خزفى رقيق، موشوم بخيول عربية وفرسان ملثمين وحوريات، من بقايا العرس الأول، ناولت آدمَ:

وحد الله.

تناول **آدم** الفنجان بيده اليمنى الفارغة من الجوزة، وضعه على فمه، وقال:

لا إله إلا الله.

جثم على صدره **آدم** همٌ، همٌ عنيد لا نهائى، يمزقه أنين الحوارى والبيوت الواطئة، الرازحة تحت أكوام الحطب والجلة والدمس، أفزعه صياح الديوك معلنة ميلاد فجر كاذب؛ غمغمتْ **حُسنة:**

سبحان الله؛ الديوك ترى الملائكة فتؤذن.

والحمير ترى الشياطين فتنهق.

قال **آدم** مغتاظًا.

قالت **حُسنة:**

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ.

قال **آدم:**

بالْعَمَى.

***

دخلت حواء القاعة شبه المظلمة، وهى تصارع إحساسًا مبهمًا، أنها رأتْ هذه القاعة، تعرف كل تفاصيلها الدقيقة، عاشت، من قبل، كل ما سوف يحدث، إحساسها لا يكذب، فقد دخلت هذه الشقة الفاخرة ذات الأثاث المكتبى البسيط، رأت ذلك الرجل الجالس فى صمت الرهبان، عاقدًا شعره الطويل خلف رأسه كذيل فرس عربى، تتذكر حواء برهبة، عينيه المُخيفتين، وأنف اليهودى التائهة الذى يحمله، صوته الأسر الآتى من عمق أسود برقةٍ مفرطة، الرجل الذى قدم نفسه بأنه يحمل درجة الأستاذية فى الروحانيات من أرقى جامعات العالم.

همستْ **حواء لآدم**، أنها رأت كل ذلك من قبل، لكن **آدم**، كالعادة، لن يصدق، مثلما لم يصدق وقائع سابقة، عندما همست له عند **حافظ الغريب**، بأنها رأت هذا الرجل أمس، لن يصدق **آدم**، أو لتحرى الدقة الكافية، لن يأخذ كلام **حواء** مأخذ الجِد، لم يكن **آدم** يهتم بكلامها، فضلًا عن أحلامها؛ لذلك؛ ولأنها أيضًا لن يصدقها أحد، وخوفًا من طائر الأحلام، الذى نوهنا عنه سابقًا، كتمت **حواء** فى نفسها كل ما ترى أو تحلم، حتى تراكمت الأحلام على مدى ليالٍ وأسابيع وشهور وسنين، لدرجة النسيان الكامل، أو السقوط من شبكة الذاكرة، التى فاضت بالأحلام، التى تتذكرها **حواء**، وتعيد إنتاجها، لحظة وقوعها فحسب، فلا جدوى من سرد الحلم، لأنه لا أحد يصدق أن **حواء** رأت هذا الواقع بأدق تفاصيله، وأن هذا الحلم بالذات راقد فى ذاكرتها منذ سنوات، ويكون الوقت قد فات بالنسبة للتحذير من النهايات المرعبة والكوارث المرتقبة، التى تحدث فى هذا الحلم أو ذاك، إضافة إلى أن **حواء** تعلمت من دروس القدر القاسية، وربما تعلم **آدم** أيضًا، أن ما نرغبه لا نستطيعه، وما نستطيعه لا نرغبه، رغم القرارات الانتحارية، التى تختبر الإرادات البشرية، لا تأتى الرياح أبدًا بما تشتهى السفن، العواصف هى التى تأتى دائمًا، وقتما تشاء وكيفما تشاء، تدمر كل الطموح والأحلام والآمال، فى النهاية، كما تعتقد **حواء**، ويعتقد **آدم** أيضًا، بحسم لا يقبل النقاش، فضلًا عن الشك، لا يكون الإنسان إلا ما هو عليه، أو ما أراد له الخالق أن يكون، ها هى الحياة، تسير بنا، تُسَيِرنا، حيث تشاء، مثل الماء الذى يحدد النهر مجراه، رغم أن الظاهر أن الماء هو الذى ينحر الصخر، ويحدد طريقه بقوة وانسابية، مثلنا تمامًا، نعتقد بشكل جازم، أننا نختار حياتنا، التى نريد ونتحسر بضعف، قائلين، **محدش بيموت على كيفه**؛ موهمين أنفسنا بأننا نعيش

على كيفنا، ترددت هذه الكلمات نفسها، بالنبرات الهادئة الحاسمة، فى أذن **حواء**، التى كانت تسبقه بكلمة أو جملة، كأنها تقرأ أفكاره، أو تقرأ شفتيه وهو يتكلم، قال رئيس الجلسة:

إن الاتصال الروحى علم يدرس فى جامعات أوربا وأمريكا، وإننا نؤمن بالله، ولكل منا تفسير مختلف للدين؛ حتى إن الروحانيين البريطانيين أقاموا لأنفسهم كنيسة مستقلة، وإن المعلومات المؤكدة تصل عن طريق أرواح الميتين، الأرواح الخيرة تهبط إلى الأرض فى مهام الخير، كإلهام الشعراء والعباقرة؛ هذا الهبوط لابد له من وسيط، يتمتع بمواهب روحية خاصة.

ثم التفت الرئيس إلى **حواء وآدم**، وألقى تعليمات واضحة:

عليكما بالهدوء والسكينة، لا تخافا مما يحدث، ركزا على الكعبة المشرفة، استحضرا جلال الكعبة فى القلب.

وبدأ بتعاويذ وتراتيل من الإنجيل والتوارة والقرآن، وسط انبعاث أضواء خافتة، من الجدران بدرجات وزوايا مختلفة؛ تبعث على الرهبة:

ردا خلفى فى همس.

قال الرئيس بصوت آمر، وقرأ الفاتحة والمعوذتين والكرسى، همهم بكلمات غير مفهومة، تخرق السكون المطبق إلا من أنفاس حواء اللاهثة، قال أحد المساعدين:

الضيوف وصلوا.

رفع آدم رأسه المُهَيأْ تمامًا لقبول كلَ ما يقدم له من إيحاءات؛ لم ير سوى بخار يتكاثف على هيئات ورقية، تلتصق بجدران الغرفة التى يجلسون فيها، رفع الرئيس رأسه وقال مغمض العينين:

أهلا بكم.

ورفع صوته فجأة فبث فيهما الرعب، استدار وجلس بجوار **حواء**، وقال لها:

رددى خلفى.

وأخذ يتلو آيات من القرآن الكريم، وهى تتلو خلفه، ثم توقف، وقال لها:

بما تشعرين.

أجابت **حواء** أن هواء باردًا يخرج من أذنها اليمنى، قال الرئيس:

إنه الشفاء بإذن الله.

تكرر خروج الهواء البارد، حتى أُغشى على **حواء** وسقطت على الأرض، حلقت روحها فى السماء، تاركة جسمها ممددًا على الأرض، مرت أمام عينيها مراحل حياتها المختلفة، رأت كل الأشخاص الذين تعرفهم، كل الأشخاص الذين مروا فى حياتها، ولو مرورًا عابرًا، رأت كل ما حدث كأنه يحدث لشخص آخر، تجهل **حواء**، بحق، الطريقة التى ترى بها الأحداث المستقبلية فى المنام، ترى أحداثًا وطرقًا ووجوها تحس أنها رأتهم من قبل، تتذكر ذلك كأنه حدث من قبل، وأن هذه الوجوه مألوفة، لكنها تجهل كيف يحدث.

أحس **آدم** أن القوة التى تصارع **حواء** ليست جزءًا من نفسها، بل كائنًا روحيًا شريرًا يحتل منطقة ما فى ذهنها، بدأ يفكر كيف أنها تكون طبيعية، فجأة تغضب، تثور، تكون صعبة المراس، ثم تعود إلى حالتها الطبيعية، أدرك **آدم**، مع هذه الفكرة المتبصرة، أن روح ظُلمة يسيطر عليها، قرر أن يجاهد كل الأفكار الخبيثة التى تطاردهما، دعا برجاء، فجاءت الاستجابة أشبه بصعقة كهربائية، نفضت كل الضباب الذى يغلف قلبه، انزاح الضغط الذى يجثم على صدره، أطلق شهقة وتنفس بعمق، فى تلك اللحظة سمع صرخات **حواء** المدوية، تبكى، تتكلم بألسنة مختلفة، خرج صوت **مريم الجميلة** ناعمًا، يخاطب **آدم**:

أنت السبب؛ أنت ذهبت بها إلى الناس الأشرار الذين آذواها، لن نسمح لك أن تضرها مرة أخرى.

وقالت **نور المستحية**:

حواء تنام باكية،؛ ذلك يفتح لنا الباب، ويقول تعالوا، نحن لا نأتى من تلقاء أنفسنا.

تجلى صوت **أبو همام** واضحًا يكلم **آدم** بلغةٍ فصيحة:

اذهب إلى البيت القديم، ستجد الفرد معمرًا بظرف واحد فى منعس أم همام، ملفوفًا فى شال أبيض كما وضعته.

ارتبك **آدم** بسماع صوت جَده الحبيب، فلم ير كيف امتلأت الشقة نارًا من الأرض إلى السقف، ولا كيف تطايرت الأشياء وقطع الأثاث فى الهواء، وعبق المكان برائحة جلد يحترق وغبار أسود ناعم، ولا كيف اسوَد وجه **حواء**، وهاش شعرها؛ تنفخ بقرف، وترطن بلهجة سودانية مبهمة، قال الرئيس:

حضرت سكينة السودانية؛ يكفى هذا الحد.

أضاء النور فانتفضت **حواء**، شاحبة كالموتى، كأنها خرجت من قبر، ارتمتْ على الأرض خرقة بالية، نظرتْ **حواء**، بوجه بائس، فى العيون المحدقة، سأل الرئيسُ **حواءَ**، مبرهنًا، **لآدم**، على انصراف الأرواح:

ماذا حدث.

***

انتهى آدم إلى اللايقين، كأنما انتبه فجأة إلى أنه يتظاهر، يتظاهر أمام نفسه قبل الآخرين، يتظاهر بالرضا، بالانسجام، بالسعادة، رغم أنه فى قرارة نفسه، التى يواجهها وحيدًا، يعرف أنه يتظاهر، وأنه غير منسجم، غير سعيد، لكن **آدم** يعرف أيضًا، بيقين لا يقبل الشك، أنه لا توجد طريقة أخرى لفعل ذلك، فإما التظاهر، ومزيد من التظاهر، أو، الانتهاء إلى الأسوأ، الهزيمة المنكرة، الانكسار أمام النفس وأمام الآخرين، أمام المرأة التى من المُفتَرض أنه سيدها وحاميها، على الأقل فى العرف العربى السائد، يدور فى حلقات مفرغة، كما يفعل كل الأيام، يستيقظ مبكرًا، يهيئ المستشفى لاستقبال المرضى، يسلم **عصفور أبو رضا** الوردية الصباحية، بدا الأمر مُدَمِرًا أو مستحيلًا، بعد أن غرق فى مستنقعات الوصفات السحرية، وجلسات تحضير الأرواح الباهظة الكلفة والإرهاق، الاستسلام التام، المخزى غالبًا، لكل أنواع الممارسات الوثنية المنتشرة فى أنحاء القطر، غير المعقولة دائمًا، بحثًا عن مخرج آمن وحياة مستقرة، حياة ليست بها حرائق وأوهام لا تنتهى، ليست بها **حواء**، التى تخنقه بخيوط حبها الحريرية ، يكاد يفقد القدرة على التنفس، يموت مخنوقًا بالحب، لكن **حواء**، لا ينقصها الوحى، ليس الإلهى بالطبع، بل ذلك الذى يبعث على النكد، يحفر عليه بسن إبرة وسط كوم قش، تتلكك **لآدم** مثل قصة الفأر الشهيرة مع الأسد، لكن الفأر، وهو هنا **آدم**، لم تعد لديه حيلة، سوى الرضا، أو التظاهر بالرضا، بعد أن تأصلت فى جوهرها، جوهر **حواء**، زوجه الحبيبة، روح انهزامية إزاء قوى، تظن **حواء** بيقين عاجز، أنها لا قِبل لها بها، فقدت الثقة، أصبحت مستلبة، تعانى الشك والحذر وعدم الاطمئنان حتى لأقرب الناس، يسيطر عليها طابع خوف تطيرى، فى حال استسلام وتبعية مخزية، يقهرها إحساس بالضياع والوحدة، البحث القسرى عن معجزة للخلاص، من مأساة تعتقد **حواء** بإخلاص، أن لا ذنب لها فيها؛ لأنها الأكثر غبنًا وقهرًا من جهة، ومن جهة أخرى ليس لها حيلة، سوى التعلق الخرافى المستميت بجبروت الأفكار، وقوة الايحاء الذى تقاومه من دون جدوى، رغم أننا لم نُلق له بالًا، رغم التصريح الفج عند

حافظ الغريب، بأن الذى يسكن **حواء** هو **عبد المسيح**، وطوال الوقت يدير صراعًا فى قلب **حواء**، دافعًا إياها بقوة عميقة جاذبة إلى دخول الكنيسة، تحس أنها اثنتان تتصارعان، كل منهما تريد أن تنسلخ عن الآخر، وتمضى فى طريق، تقاوم حتى تفقد السيطرة، تغيم عيناها، لا تكون هى هى، ترى أنها فى حلم، وأن شخصًا آخر يعيش حياتها.

آدم، لم يفكر قط، أن يذهب **بحواء** إلى الكنيسة، رغم أنها فى طريقه، وأمام ناظريه منذ بناها الأب **إبراهيم** بالخشب والطين، لكن **آدم** عندما فتح منعس **أم همام** ووجد الفرد فى الطاقة، ملفوفًا بشال أبيض؛ كما وضعه بيده، **أبو همام**، وأقسم هو، **آدم**، على المصحف، صعقته المفاجأة، لأن هذا السر لا يعرفه غيرهما، ودُفن بالموت الفاجع لجَده الحبيب **أبو همام**؛ لم يجد **آدم** أمامه، كإلهام مفاجئ من دون مقدمات ظاهرة أو منطقية، غير الكنيسة، لعله يجد تفسيرًا لما حدث عند الروحانيين:

نجرب.

قال لنفسه بصوت ذليل، فى اللحظة نفسها التى دخل فيها البيت، نادى **حواء**، ليأخذها إلى الكنيسة، كإجراء أخير؛ لإبراء الذمة الزوجية من التهم الجاهزة بالتقصير، وهروبًا من إحساس قاتل بالذنب، لم يجد **حواء**، جلس على الأرض هامدًا ريثما يستجمع قواه، ويذهب للبحث عنها، لكن هذه المرة مختلفة، هذه شطحة نهارية، فأين يجدها، قطعًا ليست عند الساقية المهجورة، ولا كوبرى أبو حليمة، ولا كوبرى الحوشية.

سار **آدم** ببطء يفكر، وكإلهام، ليس مفاجئًا هذه المرة، قصد **آدم** كنيسة مار جرجس[15] المبنية على شكل سفينة نوح، فى مواجهة محلج كوستا رتشو، لأنها أول ما صادفه فى الطريق، ولأنه لاحظ اندفاعًا من **حواء**، نحو الكنيسة كلما مرا عليها، استقبله الأب **إبراهيم**، فى صحن الكنيسة، القائمة على اثنى عشر عمودًا تشير إلى الحواريين، ببشاشة معتادة، ذكرته بالأب **إبراهيمَ**، فى ردائه الكهنوتى الأسود ولحيته السوداء السابلة، طيفًا رقيقًا، يطرق الأبواب صباح العيدين المباركين، الفطر والأضحى، وفى يده كيس مملوء بأرواح الندلر الفيروزية؛ ما زال طعمه المنعنع فى فم **آدم** الطفل، لم يتجشم آدم عناء السؤال، فقد رأى **حواء** هناك، ساكنة، فى خفة ملاك الرب المجنح، وسط أيقونات، الرب يسوع، القديس يوحنا المعمدان، السيدة العذراء الملكة، رئيس الملائكة

[15] كنيسة طوخ ومؤسسها الأول الأب إبراهيم مسعود.

ميخائيل، الشهداء، القديسين، لمحه الأب فأنهى القداس، وأقبل عليهما، بهدوء عجوز وراهب أيضًا، يقوم بخدمة التحرير باسم المسيح، يمتلك مواهب روحية جمة، أنصت لآدم جيدًا، حكى له كل شىء، ابتسم وقال بصوت بخورى:

إن بها روح عِرافة، بايثون، حجبت شخصيتها بشكل كامل، استخدمت صوتَها وملامحَها قنوات تعبر من خلالها، كل من يفعل ذلك مكروه عند الرب، فلا يوجد فيك من يجيز ابنه أو ابنته فى النار، ولا يعرف عرافة ولا عائف ولا متفائل ولا ساحر.

وأخذ الأب **حواءَ** إلى الهيكل مستقر الراحة، عابرًا القبةَ ذات القوسين الفضيين المتعامدين على هيئة الصليب، التى اخترعها القديس يوحنا ذهبى الفم، تفحص الأبُ **حواءَ** عن قرب، فى نور السراج الذى لا ينام، باحثًا عن دليل خارجى، يفسر حالتها الروحية الغريبة، نظرةٍ وحشية فى عينيها، أو رنين معدنى فى صوتها، لم يجد؛ حرك الصليبَ على رأسها، أمام أيقونة المسيح الجالس على العرش، ممسكًا الكرة الأرضية بإحدى يديه، وممسكًا باليد الأخرى صولجان الحكم، غمس يده فى زيت أبوغالمسيس المقروء عليه سفر الرؤيا فى ليلة سبت الفرح، وحجاب السبعة الملائكة العلوية الذين معهم خدام السبعة الأيام، يصلى أوشية[16] من أجل شفائها:

أبارك الرب فى كل حين، كل من يدعو باسم الرب يخلص، وها أنا أعطيكم سلطانًا لتدوسوا الحيات والعقارب، وكل قوة العدو، ولا يضركم شىء، بسم الله الكائن فى النور الذى لا أحد يراه، أقسمتُ عليك أيتها العين الشريرة، والنفس السوء، باسم الله العظيم الأزلى، رئيس الحياة، وإكليل الشهداء، وتاج القديسين، ونور العالم، أن تخرجى، ممن معه هذه الصلاة، وكل من يستحم بالماء، وكل من يدهن من هذا الزيت، تبعد عنه الأرواح الشريرة النجسة والعين الشيطانى، كما خرج أبونا آدم من الفردوس حزينًا كئيبًا، بسم الله مخلص كل شىء، بسم الله الدائم بلا زوال، الذى ليس له شبه ولا مثال، أيها الرب القدوس، الذى إذا ذُكِرَ اسمُك على الماء يجمد، وعلى النار تخمد، كذلك تخمد قوة الشيطان العدو عن حواء، وتوابع الشيطان المردة الملاعين، أسألك باسمك العظيم، وعظمة جبروتك، أن تخلص عبدتك حواء من القرينة والتابعة، أقسمتُ عليكم بهذه الأسماء، كل واحد باسمه، باسم الله الذى خلق كل شىء بقدرته، ألا تقربوا حواء ولا تخايلوا لها، لا فى ليل، ولا فى نهار، ولا تعارضوها بشىء مكروه، لا فى نوم، ولا فى يقظة، ولا فى

[16] صلاة.

حزن، ولا فى فرح، ولا فى لبس، ولا فى خلع، ولا فى بر، ولا فى بحر، ولا فى غيط، ولا فى بيت، مادامت معها هذه الصلاة، أقسمت عليكم أيها الأرواح الخبيثة، الذين تحت الأرض، والذين فوق الأرض، والذين يطيرون فى الهواء، والذين يغيرون وجوههم، والذين يظهرون فى كل شىء، وجميع الأشكال الرديئة من الذكور والإناث، أقسمت عليكم أيها السبع الملائكة السمائيين، خدام السبعة الأيام، المكتوبة أسماؤهم فى هذه الصلاة المباركة، كل واحد باسمه، وملائكته الذين تحت سلطانه، بحق العشر الكلمات التى كتبت عن غير قلم، وأعطاها الرب لموسى على جبل الطور، أن تحل البركة والنور على حواء، وكل من يدهن من هذا الزيت، أقسمت عليك، باسم العلى، الذى يحمل قوتك وسلطنك، ألا تخفى عنى شيئًا، فيما أسالك عنه فى هذه الساعة، بحق النور العزيز، والاسم المكنون الذى تسبحونه بغير طيب نفوسكم، بل كرهًا منكم، وكما سقطتم من مراتبكم، وانسلختم من الحال الروحية، ولبستم الحال النجسة، أن تخرجوا من حواء، التى تستحم بهذا الماء، وتدهن من هذا الزيت، بحق الله الذى خلق السموات بقدرته، ولا ترجعوا بحيلة من الحيل الرديئة، أيتها الأرواح الشريرة آمركم أن تخرجوا من هذه المرأة.

لم تحدث استجابة واضحة؛ كرر الأب بصوت أعلى؛ لم يحدث شىء؛ قال الأب:

باسم يسوع أنت خاضع لى.

تغيرت ملامح **حواء**، بدا أن قوة أخرى تتحكم فيها، فقال الأب:

أيها الروح الشرير الذى فى هذه المرأة، أنا أتكلم إليك، لا إلى المرأة، ما اسمك.

جاء الرد بكلمة واحدة مقتضبة، فاجعة:

أكاذيب.

قال الأب:

يا روح الكذب، اخرج من هذه المرأة.

أجاب صوت فظ:

هذا بيتى ولن أخرج منه.

قال الأب:

ستخرج الآن باسم الرب يسوع المسيح.

وبدأ الأب يُنهك الروح الشرير؛ فبدأ الروح يساوم الأب للخروج، قال:

إذا خرجت سأعود.

قال الأب:

لن تعود.

قال الروح:

إخوتى هنا وسوف يقتلونها.

خرج فحيح من فمها، سقط رأسها على صدرها بشكل مترهل، تدلى لسانها من فمها مائلًا إلى الزرقة، يتلوى مثل أفعى، انهارت على الأرض مثل كيس فارغ، انفجرت فى نوبة صرع عنيفة، أخذ جسمها يهتز ويرتعش، خرج منها ريح قوى أشبه بخوار ثور صريع، تنهدت وتثاءبت، همدتْ جسديًا وانفعاليًا، بدت **حواء** مثل ميْت، قال الأب:

وإله السلام سيسحق الشيطان تحت أقدامكم سريعًا.

وانتحى الأب بـ**آدم**، وضع يده على كتفه بحنان أبوى خالص، وقال له:

إن الله يكشف نشاط الأرواح الشريرة فى وقت يختاره هو، لكن هذه الأرواح مثابرة للغاية؛ فإذا خرج الروح النجس من الإنسان، يجتاز فى أماكن ليس فيها ماء، يطلب راحة ولا يجد، ثم يقول أرجعُ إلى بيتى الذى خرجتُ منه، فيأتى ويجده فارغًا مكنوسًا مزينًا، ثم يذهب ويأخذ معه سبعة أرواح أُخر أشر منه، فتدخل وتسكن هناك؛ فتصير أواخر ذلك الإنسان أشر من أوائله؛ وهذا ليس نهاية الصراع؛ فالشيطان يسعى باستمرار إلى استعادة سيطرته على الإنسان؛ مستخدمًا كل روح شرير تحت إمرته، إبليس اللعين يحرس أسرار مملكته بكل غيرة، ولأنهم كائنات روحية حُرمت من أجسامها، تتوق توقًا شديدًا إلى احتلال أجسام مادية، وخيارها الأول، هو الجسم البشرى، لكنه لا يوجد أساس للاعتقاد بأن إنسانًا يمكن أن يُمتلك من روح شرير، لأن فعل "دايمونيزو" يفيد التعرض لتأثير روح شرير، ولا يفيد الامتلاك، فاحفظ قلبك؛ لأن منه مخارج الحياة، وإياك والإحباط الشخصى المستمر، والاحتياج العاطفى العميق، غير المُلَبّى، وعليك دائمًا بالصلاة والصوم، فإن هذا الجنس لا تبطل قوته إلا بالصلاة والصوم والتواضع وطهارة القلب والنفس والجسد.

***

أحس آدم بارتباك مفاجئ، ليس مفاجئًا تمامًا، فهو يلح ويلح ويلح بقسوة، ويطارده بإصرار مفرط، ربما من قبل أن نفكر نحن، بجدية، فى كتابة هذه الرواية بسنوات، وربما قبل أن نعرف **آدم** ونقرر فى لحظة، لا نعرف حقيقةً كيف نُوَصِفَها، أن نكتب عن هذا العالم الكئيب الغامض، المسلى أحيانًا بحكاياته الغرائبية العصية على التصديق، التى تدفع **آدم** بقوة فضولية بائسة ونهائية، أن يعرف حقيقة الأشياء، حقيقة ما يجرى له أو عليه، حمل **آدم** الفرد المُعَمَر بظرف يتيم، إلى الرجل الوحيد الذى يلقاه ثلاث مرات، على الأقل، فى اليوم الواحد، أثناء الصلوات المكتوبة، يمر عليه مرات أخرى فى طريقه، مِن وإلى المستشفى، لكن ويا للغرابة، أننا دائمًا لا نرى الأشخاص القريبين، أو الأشياء القريبة جدًا، أو بكلمات أخرى، الشيخ البعيد سره باتع، أو بقول معكوس، لا يُكرم نبىٌ فى أهله، على اعتبار أن **جاه الرسول** هذا، الذى لا يمكن أن تتخطاه العين أبدًا، من الأهل، بسبب طول العِشرة؛ رغم أنه جاء منحدرًا من صحراء العرب، منتسبًا لكنز الدولة ابن ربيعة، الذى يتمتع بكل مميزات السلالة القوقازية، ومنتميًا، فى الأصل، إلى ماتوك النوبة، القادمين من الشرق، الذين انصهروا فى العروق العربية إبان الفتح العربي، **جاه الرسول** المحبوب مثل، بل أكثر من، أهل البلد الأصليين، الذين يرفعون أنوفهم إلى السماء، ويميلون بأعناقهم التى تحمل رؤوسهم الخاوية، فوقها طواقى الوبر المكوية بعناية، الثابتة على الرأس مثل الطربوش أو علبة الكيل المعدنية، يضعون رِجلًا على رِجل وهم فوق ظهر الحمار، لا ينزلون أرجلهم، لعدم الحياء، إذا مروا بأحد الكبار فى السن، أو فى السلم الاجتماعى، أو ذوى الحيثيات الميرى، مثل العمدة **عبد الحميد سعد**[17]، أو شيخ الخفر **محمد جاب الله**[18]، لذلك كانوا غير محبوبين، **جاه الرسول** يفعل ذلك، احترامًا للصغير قبل الكبير، بمحبة كبيرة، جعلت له وطنًا فى قلوب الكبار قبل الصغار، النساء قبل البنات، ومهابة تسبقه إلى النفوس، يقصدونه؛ طلبًا لعلاجاته النوبية الناجعة، أو المشورة، كما يقصده كثيرون من بلاد بعيدة مثل الفرعونية، التى يسكنها **حافظ الغريب**، أو مصر الجديدة، حيث أستاذ الأرواح الجامعى، لكنها الطبيعة البشرية التى أبعدته عن فكر **آدم**، حتى عندما أشار

[17] عمدة طوخ.
[18] شيخ الخفر فى دوار عبد الله عصر عمدة مشتهر.

عصفور أبو رضا، على **آدم** بالذهاب إلى **جاه الرسول،** على اعتبار أنه أول مَن قرأ على **حواء** وسترها بعباءته، لم يفعل **آدم** أو يهتم، ربما ليقين داخلى بعدم تصديق ما يحدث، أو بالأخص ما يُشاع عن **جاه الرسول النوبى،** القابع فى داره الواسعة على حرف الترعة، يعلم الأطفال القرآن، من معجزات، كما يُروى، فى الشفاء، يمر **آدم** على **جاه الرسول النوبى** يوميًا، يُلقى **آدم** السلام فيسأله **جاه الرسول** عن الحال والصحة، التى لا تخفى على أحد، لأن الفولة لا تُبل فى فم أحد فى هذا البلد، مما يعنى علم **جاه الرسول،** المسبق بما يسأل عنه، لكنها عادة الأهل الطيبين، بحال **حواء** التى يعرفها الجميع من دون استثناء، خاصة بعد الطلعات الليلية، والسرحات النهارية، والغيابات المتوالية، ومشاوير التداوى، ومع ذلك لم يحاول، **جاه الرسول النوبى،** الذى يعلم يقينًا، أن الإنسان إذا لم يساعد نفسه؛ لن يساعده أحد، ولا بد أن يحارب المرء معركته بنفسه، فالسيف بضاربه، ولا بد أن تكون لدى **آدم** القناعة التامة؛ لذلك لم يحاول **جاه الرسول** مساعدة **آدم** الذى لم يطلب المساعدة، حتى عندما سنحت الفرصة وصارحه، **آدم،** بأنه صلى جنبًا، بوصفه شيخ الجامع، المنتمى لقبائل الفقيراب، الفقهاء الذين تفرغوا لتعليم الدين الإسلامي والقراءة والكتابة للنوبيين، لم يسأل **جاه الرسول** عن السبب الذى شغل **آدم** عن نفسه، لدرجه أنه نسى الاغتسال.

دخل **آدم وحواء،** من باب البيت المفتوح للجميع، الذى تزين جدرانه من الخارج نقوش غائرة، بأشكال هندسية، وصور الكواكب والنجوم، وطيور محنطة أعلى البوابة، متخطين مسطبة عند باب المنزل، فى مواجهة مزيرة، تضم ثلاث عيون، بكل عين منها زير فخار مخروطي الشكل، يملأها **جاه الرسول** بالماء العذب؛ ليشرب العابرون، نهض **جاه الرسول** لاستقبال **آدمَ وحواء،** بابتسامة أضأت وجهه الكنوزى الوديع، بطريقة تلهم الثقة؛ كان متربعًا على دكة الجريد، تحت شجرة التوتة الوارفة، المصحف فى يدٍ، ومنشة سعف النخيل فى اليد الأخرى، يلبس التقشيطة والطاقية المشغولة باليد، ينتظر أطفال الكُتّاب، داخل فناء بيته الواسع، الذى بناه بنفسه فى حضن الترعة، بسقف مجدول بجذوع وجريد النخل، على هيئة قباب من الطوب اللبن، تشبه أنصاف البراميل، قادهما، من باب السر، الذى لا يمر بالمضيفة، المزينة بأطباق خزفية، مرشوقة في الجدران، وملونة بالأبيض والأزرق؛ لمنع السحر والحسد، إلى مجلس العلاج المفصول بستارة من الخرز، فى غرفة مصممة على الطريقة العربية، مفروشة بالكليم، والوسائد القطنية المكسوة بأقمشة زاهية.

أفسح لهما **جاه الرسول** جنبه، ربت ظهر **آدم** بمحبة صادقة، والمصحف مفتوح فى يده، وقال:

حواء.

رد **آدم:**

نعم.

صار **جاه الرسول،** الذى نجا بمعجزة ربانية من أفاعى وحيات وسحالى، وعقارب صحارى التهجير الأول، التى كان يصطادها بأسياخ حديدية طويلة مدببة، ببراعة قصاص أثر بدوى؛ للانتفاع بسُمِها، أولًا، بمباركة الله، وثانيًا، بمباركة العلاجات النوبية، الموروثة بجدارة والمستمدة من الأجداد النوبيين، السودانيين والمصريين، الماتوك والفايجى، الكنوز والفقيرات، منذ زمن ندرة الأمبيسلين، وجرعات التخدير وضيق النفس، وخبرات الأجداد النادرة، التى بفضلها أيضًا، بعد الله طبعًا، كعبةَ الشفاء، الرئة التي يتنفس بها التعابا، أكسوجين العافية الإنسانية، ساعد كثيرين من الإفلات الإعجازى من ملك الموت، المتربص فى ذيول العقارب وأفواه الحيات، وكائنات الأرض الخراب، يعالج، باسم المولى الشافى، الجروحَ بالسمن المغلي، والملح والبصل والثوم، إخراج الشوك الغاطس في عمق اللحم البشرى، بشئٍ ثمار الحنضل وربطه فوق الشوك، أو بالبصل المشوي ولبن العُشر؛ ثقل الرأس والعينين بالحجامة، وشراب السنامكي منقوعًا مع منقوع العرديب والسكر، ومزيج العسل والسمن والثوم والبلح المغلي علي الريق، الدوخة بشراب الإبريق، ولحس العين المصابة بسقوط النمل بحافة اللسان، ولبخة الحلبة، فك الرأس بالجرد بشريط مسطح كنعال أحذية، وبرم الربطة، وصب الزيت فوق الرأس، ضيق الصدر بالصمغ المخلوط بشعر الغنم، ولبخة الطمى النيلى لعلاج الصداع النصفى وآلام الأسنان.

الله سبحانه هو الشافى، ما نحن إلا أسباب.

قال **جاه الرسول** بتواضع جم.

آدم الذى لا يصدق أن هذا الرجلَ الوديعَ، دقيقَ الجسم، ذا الأسنان اللؤلؤية، يمكنه أن يفعل كل ذلك، فضلًا عن القدرة على الأبالسة، قال **جاه الرسول،** كأنه يقرأ من كتاب مفتوح:

حواء تحلم بحيوانات مفترسة وكلاب وثعابين، وناس بأحجام كبيرة جدًا أو صغيرة جدًا، تظهر فى جسمها كدمات زرقاء وحمراء، تُصرّ على أسنانها أثناء النوم.

بُهِتَ **آدم** من التشخيص الدقيق، طأطأ رأسه موافقًا؛ قال **جاه الرسول** النوبى بهدوء غريب:

مراتك مصابة بمس شيطانى.

سأل **آدم:**

كيف يتحكم الجن فى الإنسان ومشاعره وأفعاله.

قال **جاه الرسول:**

الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم.

تذكر **آدم** الأرانب البيضاء التى تظهر له فى الليل أثناء نوبات الحراسة بالمستشفى، يُمسكها بصعوبة ويضعها فى حجره، يذهب بها إلى البيت يفتح حجره فلا يجدها، وزائرات الليل الفاتنات، وحمار يوسف كودية الذى يبرطع فى الملقة، حتى أمسكه **أبو همام** من أذنيه؛ وقال له:

إياك تِعَتبْ هنا تانى.

فاختفى إلى الأبد.

قام **جاه الرسول،** غسل براد الشاى، ملأه بالماء، وضعه على نار هادئة، انتظر طويلًا، حتى استوى الشاى ببطء، قام **جاه الرسول** بهدوء، صب الشاى فى كوب ضيق حتى امتلأ الكوب وطفح الشاى على الحواف؛ لكنه تابع الصب؛ فقال **آدم:**

الكوب لن يستوعب المزيد.

توقف **جاه الرسول** عن الصب مبتسمًا، وقال:

الأمر كما ترى، الكوب الممتلئ لا يمكنه أن يستوعب المزيد.

آدم المشدوه بما يسمع لم يفهم؛ أردف **جاه الرسول:**

فى ضوء فَهمنا المحدود، نجد صعوبة فى تصور كيف يدخل الشيطان بنى آدم، لكن الشيطان روح ليس له جسم، ليس من لحم ولا دم، رغم أنه شخص أصيل له أحاسيس، يستطيع أن يسبب الألم، ألم تقرأ "يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ.

قال **آدم** مستنكرًا:

كيف يمكن لكيان روحى مثل الشيطان أن يحتل كيانًا ماديًا مثل الإنسان.

عندما يبدى الإنسان شيئًا من الخضوع لإرادة الشيطان؛ فإن الإنسان يعطى الشيطان سلطانًا على روحه.

قال **جاه الرسول النوبى.**

انتفض **آدم:**

كيف يحدث ذلك إذا كان الخالق يسيطر على العالم.

قال جاه الرسول:

ربما تعمد الله أن يجعل هذا الأمر محيرًا إلى الأبد.

قال **آدم**، نافد الصبر:

لماذا.

قال **جاه الرسول:**

لِيَمِيزَ اللهُ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيّبِ.

قال **آدم** غاضبًا:

هذا منافٍ للعقل.

قال **جاه الرسول النوبى:**

كل منا، مهما ادعى من تواضع، يعتقد فى أعماقه أنه الأرجح عقلًا على الإطلاق.

أخرج **آدم** الفردَ من ملابسه وناوله لـ**جاه الرسول:**

الفرد وصوت أبو همام.

تناوله **جاه الرسول**، من دون أن يهتز، وقال:

هذا قرين أبو همام، وهو يعرف عنه كل شىء.

صار **آدم** أكثر خوفًا؛ قال **جاه الرسول النوبى:**

لا تقلق؛ إنها مخلوقات جديرة بكل ازدراء.

أنصت **آدم** مذهولًا، قال **جاه الرسول:**

إنهم كذبة، عملهم الافتراء والخداع بالتنبؤ بأحداث المستقبل؛ لإبقاء الإنسان فى عبودية الخوف.

قال **آدم** برجاء:

وكيف الخلاص.

قال **جاه الرسول:**

عندما يسير المؤمن فى النور؛ يكون أبعد من نطاق معرفة الشيطان.

واحتضن **آدم** بحنانِ أمٍ.

شربا الشاى، فى صمت تشقه رشفات لها إيقاع موت، قال **جاه الرسول** فى ابتهال:

الصلاة نور.

نظر **آدم** فى الأرض محرجًا. مسح **جاه الرسول النوبى** على رأس **آدم:**

صلاة الإيمان لا العادة.

فرت دمعة من عينىّ **آدم**؛ فتهلل وجه **جاه الرسول**؛ قرأ على **حواء:**

يّس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ.

وأمسك قلمًا أحمر؛ **لأن الأحمر يصيب الجن بالرعب،** قال **جاه الرسول** شارحًا، وكتب على يدها اليمنى، **وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ،** وعلى اليد اليسرى، **وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ، ونْ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ،** على اليدين أيضًا، وعلى الجبهة، **وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ،** وراح يتلو آيات الاستقطاب، **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيم* الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ* الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ* مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ* إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ* اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، ألم* ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ* وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ* أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وإِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ وإِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ.**

ارتعشت **حواء** ورفضت سماع القرآن؛ فقرأ:

خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ" وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا.

تكهرب الجو، تكلمت **حواء،** أمره **جاه الرسول** بالخروج فالتزم الصمت، فأعد **جاه الرسول** خلطة من الزعفران والمسك وماء الورد ودم الغزال، وكتب آيات الصعق على ورقة بيضاء، غمسها فى خلطة السوائل المجهزة، رش الماء على وجه حواء؛ فصرخت صرخة مدوية، سقطت على الأرض من دون حراك، كأنها فارقت الحياة.

تقدم **جاه الرسول النوبى** نحو **حواء** ورفع الأذان، أفاقت غير مصدقة الخفة التى تحس بها، تبددت، فى اللحظة نفسها، آلام الظهر التى يعانى منها آدم، أوصى **جاه الرسول، آدمَ،** بما يشبه الدليل:

لا تنم حواء إلا على وضوء، لا تطرح ثيابها، قبل أن تقول بسم الله؛ فإنها ستر ما بين أعين الجن وعورات بنى آدم، لا تتعرى أمام المرآة، إياكم والنكد خاصة قبل النوم، عليكم بالفرح؛ لأنه ليس شىء أبغض إلى الشيطان من سرور المؤمن، تقرأ القرآن على الماء، ترش به أركان البيت إلا الحمام، تخلطه بالعسل، تشربا منه قدر المستطاع، تأخذ فصين من الثوم قبل الأكل ثلاث مرات يوميًا، تبلع بذور الحلتيت، تدهن منطقة الصدر والظهر والحوض بزيت الزيتون المرقى، تبخر الموضع بالمسك والسعتر ولبان الدكر صباحًا ومساءً، تمضع خمس حبات من بذور الملوكى.

وأعطى **آدم** كيسًا به تسع كبسولات مفرغة من محتوها الطبى، مملوءة بمسحوق من عشب جبلى اسمه باعورى مفضض، وقال **جاه الرسول:**

تبلعها دفعة واحدة وتشرب بعدها كوبًا من اللبن، سيحدث استفراغ وإسهال وتحس نارًا فى أحشائها؛ لا تنزعج، عوض الإسهال بالعصائر والماء.

تبسم **آدم**؛ غير مصدق؛ فقال **جاه الرسول النوبى:**

ليس هناك أكثر تضليلًا وخداعًا للذات من إلقاء المسئولية على كائنات الخفاء، لكن رفض الإقرار بعمل الشياطين يسهل عملها، من دون أن يفطن أحد لوجودها، فهى مخلوقات ظلمة، سلاح إبليس ضد بنى آدم هو الجهل، والكبرياء، واليأس، والإحساس بالذنب"، ونظر إلى حواء وقال "نحن نحارب أعداء حقيقيين، لهم عقل وإرادة وذكاء، وأنتِ أقوى من كل الشياطين بحول الله وقوته؛ وإذا أردتِ الشفاء، بيقين، فسوف تشفين بإذن الله.

والتفت إلى **آدم**، بنظرة ملغزة، وقال:

لا تشرب من يد غيرك فتزداد عطشًا.

***

الاحتقار المتبادل، الاحتقار كلمة سيئة السمعة أصلًا، ذات تاريخ بشع فى العرف الإنسانى كله، هى بذاتها، فما بالك إذا كان احتقارًا متبادلًا، ليس متبادلًا بين غرباء مجهولين لا يعرفون بعضهم بعضًا، لا يتعاملون بشكل يومى، مستقر، أو يجب أن يكون مستقرًا، بين زوجين، أحيانًا تنتهى الحياة هكذا، بين اثنين حُكِمَا، بيدٍ من حديد، بأن يتقاسما، معًا، الحياةَ بكل تفاصيلها الدقيقة منها والعظيمة، تحت سقف واحد، ليس سقف البيت فحسب، هذا ما يتبادر إلى الذهن، بحكم الازدهار الشعبى للأمثال، بل سقف واحد مادى، معنوى وعاطفى، هذا هو المهم، والأهم سقف شرعى معترف به، تلك حال **آدم وحواء**، أو، **حواء وآدم**، المتأخرة جدًا، وصلت إلى ما يُطلق عليه، لا أطيقك ولا أقدر على بُعدك، يزداد الاحتقار، كلما حاولا التخلص منه، وصلا معًا، فى الوقت ذاته، إلى احتقار النفس واحتقار الآخر، والإحساس المميت بالذنب، وقعا، من دون أن يعرفا، فى مستنقع تشويه كامل، بفعل **دايمونيون** اليونانية، المفرد المحايد، روح شرير، روح نجس، حسب القاموس العربى.

أصبحا، **حواء وآدم**، بسهولة نادرة، أرضًا خصبة لنمو البذور الفاسدة، لا أقول غير الصالحة فحسب، ماذا بعد احتقار الذات، والشعور بالذنب والحزن الدائم، من غير منطق ولا سبب، فُتِحتْ كل أبواب ونوافذ ومسام الروح والقلب؛ لسهام موت بطىء محقق، فقدا التواصل حتى بالكلام، يُثقلهما إحساس بالتوحد والصمت، رجعا، **آدم وحواء**، من البيت النوبى العتيق لـ**ـجاه الرسول**، محملين بالوباء، رجعا، كلٌ فى طريق، **حواء**، إلى البيت لتتلقى تهديدات غير مرئية، وطعنات نجلاء نافذة، **وآدم** إلى المستشفى ليقضى ليله على حد السيف، يستجدى حياة مفتقدة ومبتغاة بقوة.

أشعل **آدم** النار وجلس يغذيها حتى خطفه النوم، من دون أن يشعر؛ أحس **آدم**، فى عمق الحلم، نغزًا فى جنبه، صحا مفزوعًا، رآها جالسة تتوهج النار فى وجهها المبتسم، فرك عينيه وقال مستغربًا:

وعد.

اتسعت ابتسامتها ولم ترد، مد يده ليُلامس يدها الممدودة، لم تُطالها، اعتدل **آدم**؛ فقامت من دون أن تنطق، وقف **آدم**؛ سارت بخطوات متدللة، عيناها إلى الخلف تلمعان بنظرة نداء جاذبة، تبعها آدم مسحورًا، مشتْ على مهل فى خطوٍ رشيق، مشى خلفها ينادى:

وعد... وعد... وعد...

لا ترد، يتردد الصدى فى فراغ الليل الساكن منغمًا، يُسرع **آدم** خلفها؛ فتسرع محافظة على المسافة ذاتها بينهما، قطعتْ الطريق بخفة فوق جسر الترعة إلى ميدان الحرازية، دخلت بيت **حُسنة** مع طلوع النهار، دخل **آدم** وراءها، بحث بجنون فى كل حجرات البيت المهجور، لم يجد لها أثرًا، ذابت فى النور، سمع **آدم** صوتًا يشبه صوت **حواء**، تتبع الصوت، ميّز الصوتَ، وجدَ امرأة تلتحف البياض، تشمم عطرها، نظر إلى السماء، روح **حُسنة** تملأ المكان، سطع نور باهر أعشى عينىّ **آدم**؛ ارتعش وسقط على الأرض، **حسنة، وعد، حواء**، روح هائم، صوت ينادى، قلب يبتهل:

كم تاقت نفسى لرؤياك، أنا أعرفك حق المعرفة، أشكو إليك ضعفى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، من لى سواك، بك أستجير، من كل ما كان، نَوِرّ بصيرتى حتى لا أطرق بابًا سوى بابك، يا مَنْ تحبنى محبة صافية، يا مَنْ وهبتنى كل شىء، ولم تبخل علىّ بشىء، اغفر ما كان منى عن جهلٍ، وعذاب السفر الطويل من أجل الوصول إلى الشيخ المزعوم ذى السمعة والصيت، الشيخ الغريب الذى جرعنى الماء الأسود المنتن الطعم والرائحة، فجعتنى نهايةُ المطاف؛ اكتشفت حقائق مرعبة عن الحياة والناس والنفس، لم أتذكر فى غيبوبتى الغريب ورحلات العذاب فحسب؛ لكننى تذكرت أيضًا الماء الذى شربته، لأول مرة فى حياتى، بطعم الجاز، عندما قرأ عليه الشيخ عبدالله؛ تغيرت ملامحى، أصبحتُ امرأة عجوزًا تودع الحياة، أتذكر نفسى وقتها، تبدو لى مجنونة فقدت عقلها، تسلسلت قدماى بسلاسل حديدية غير مرئية، فلم أستطع الذهاب إلى الحمام بمفردى، حينما التف حولى الذباب، لم تستطع يداى التحرك لدفع لدغاته، كانت الكلمات ثقيلة على لسانى؛ لم أستطع نداء أمى لتدفع عنى الذباب، وكلما ذهبتْ نفسى إلى الماضى عادت بمرار كبير، طالت الطريق، روحى تؤلمنى، لا أمل لى إلا أنت، يا حى يا قيوم، أنت سيدى وسندى، خلصنى من عدو يعلم عيوبى، يرانى من حيث لا أراه، آيسه منى كما آيسته من رحمتك، وقنته منى كما قنته من عفوك، وباعد بينى وبينه كما باعدت بينه وبين جنتك..

رجع **آدم** على أطراف أصابعه، من دون أن تشعر به المرأة، تاركًا القلب المبتهل، يواجه المصير المحتوم، فى بيت الروح الهائم، بأدعية مبتكرة من قلب مكلوم وقريحة عارف، أدعية مُجَربة ذات فاعلية لا تخيب، ضد طريد الرحمة الإلهية إلى يوم الوقت المعلوم، وتبع النداء، يسوس شيطانه بطرق أخرى، طرق أقرب إلى الخنوع أو الاستسلام، شيطان جسده يتحرق، لا يعرف كيف يُسكته، يرغب بقوة، أن ينهار تحت قدميّ أى امرأة، حتى لو كانت **وعد** التى تبخرتْ فى نور النهار، ما هكذا تورد الإبل يا آدم، **آدم** المخبول فى أنفس لحظات حياته قاطبة، المتعثر فى همومه الحميمة، لا يعرف كيف تورد، ألحت عليه أعضاؤه الحميمة أيضًا، التى يفكر بها، نقح عليه نصفه الأسف، فقرر، كإلهام، يرقد فى أعماقه، أن يذهب إلى **وعد**، ليغسل وخم الروح الذى حط على جسمه، بعدما ذاق شهدها المصفى فى لحظة مباغتة، بسرعة قياسية صفته بداخلها، ونامت تنعم بأحلام سعيدة، من دون منغص، من أى نوع أو أى درجة، سحبته إلى أرض الباشا، وهى تجمع الياسمين فى سلال، يضعها خفر الباشا أمام العشش والبيوت والخيام، الشاهدة بأيمان مغلظة على زمن السخرة والإقطاع، ومع ذلك، هى دائمًا، **وعد**، مَنْ تمتلك زمام المبادرة، هى من تمسك الدفة، هى الربان الذى يعرف ما يريد، ويفعل ما يريد بحرفية مطلقة حد العفوية، يريد **آدم** أن يتفلت، يفعل شيئًا شاذًا، يخالف طبيعته الوقور، شيئًا يُخرجه من سجنه الوهمى خلف جدار فولاذى من الفضيلة، الصداع يفرتك دماغه، روحه منغلقة، يريد أن ينتقم من أى شىء، أى شخص، من نفسه، يتحدث لسانه عن الفضيلة والخلاص، ويتفجر داخله بالشهوات، يرسم خياله نساء عاريات وسط مخملٍ شفاف من القطيفة الخضراء، الغلالات الحريرية الزاهية الخضرة، الضافية التى ترفل فيها الحور العين المقصورات فى الخيام، طرف الواحدة منهن يضىء ما بين السماء الأرض، لكن **آدم** المغبون، يسير، الآن، فى الاتجاه الخطأ، نحو الحور الطين، شعاع النور، النور الجاذب، ربما إلى هلاك الروح، لا بأس ما دام الجسد ينعم، ولو فى النار، تسلق **آدم** أوهامه ومضى إلى **وعد**، لم يكن أمامه والحال هذه، أن يفعل أكثر مما فعل، أو قل كان ضائعًا فى التفاصيل، موت الأب الأسطورى قبل الميلاد، جنون الأم، جبروت الجَد، استحضار الأرواح المرعب، تلك التفاصيل التى يكمن فيها الشيطان دائمًا، فى المسافة اللانهائية الكائنة من باب البيت المهجور والحميم أيضًا، منذ اختفاء **حُسنة** اللغز، البيت الذى جعله **آدم** كعبة، يطوف بها ولا يجرؤ على دخولها، حتى يلقى نفسه فى حضن **وعد** المشتعلة الآن، مع **القط** المنتهى الصلاحية تمامًا، المضمخة بعطر الشهوة

الفاخر، اتجه إليها مباشرة، تحت سيطرة الحاجة العمياء، ليغرق جسمه المشتعل فى مائها العذب، قال **آدم** لنفسه مطمئنًا:

يمكن يكون فرج فى السجن.

منومًا **آدم** لم يزل، لم ينتبه أن الموت يتربص به بعد لحظات، فى قصر حبيبته **وعد**، التى يحمله حضورها ويطير، يذهب إليها، بإصرار قدرى، غريب، كلما هجرته زائرات الأحلام الليلية، اعتاد **آدم** ذلك ببساطة، لا بد أن يصرف نفسه، لم يعد فى قوس الصبر منزع، وتر مشدود، يلح طوال الوقت، حتى يطلق السهم فيحدث الارتخاء المريح، لذلك؛ ورغمًا عن كل أخلاق الاستقامة المُعَذِبة، القابضة على الجمر، يتسلل **آدم** إلى **وعد**، كلما أمكن، يصفى نفسه داخلها بخبرة معطلة، وأساليب غير معلنة من جهته، وألاعيب بهلوانية من جهتها، لجلب إشباع مطلوب بشدة، مفتقد بسبب **فرج**، الذى أهلك نفسه بالحشيش، لم تعد تنفع معه المنشطات الموصوفة بعناية مبتكرة، ورغم أن **فرج** ارتاب كثيرًا، وتذمر أكثر، فإنه من الصعب على العاشقين، **وعد وآدم**، أن يريا الغدر فى عيون النمر، المتربص فى هدوء، يتسحب بخطى ناعمة لا تحرك العشب، لينقض على فريسته الساهية، يغرس أنيابه الجائعة فى رقبتها، فى أقرب فرصة سانحة، نظن أننا نتيحها لفرج، فى آخر سطور هذا الكتاب المتعب؛ شفقةً منا على حال الغليان التى تفور بداخله، بوصفه رجلًا تُنتهك ربيبته، التى قتل من أجلها شابًا يافعًا من تلاميذ المدارس الناعمين، من دون أثر ولا عقاب ولا تأنيب ضمير، قتله بضمير مستريح لأنه أحب حبيبته، أو اعتدى على حريمه، اليوم هو عاجز حتى عن إبداء السخط، تحت لسان **وعد** الحاد، لكننا، إحقاقًا للحق، لن نمكنه من قتل **آدم**؛ رفقًا بفرج، وخوفًا على **آدم** الذى مات آلاف المرات، وتنزيهًا عن إراقة دماء، ربما تكون زكية، تسيل على الورق فتحبط قارئنا العزيز، وتصيبه بأرق ليلى يمنعه النوم.

تحسس **آدم** جيبه الخاوى من البرشام؛ تحسبًا لوجود **فرج** خارج السجن، صدفة غير مرغوبة، بل مكروهة كراهة التحريم لا التنزيه، سار **آدم** تائهًا من دون تركيز أو عقل تقريبًا، مهمومًا بالنار التى تحرّق روحه، الحيرة تنخره من الداخل، ليست الحيرة العادية، حيرة الناس المرفهين، التى تعترى بعض الناس بعض الوقت، فى أمور حياتهم اليومية، لكنها الحيرة القاتلة، الباحثة بعمق وجدية مطلقة، عن حكمة الرب المستخفية فى إرادته العظمى، إرادته الكونية المنزهة عن العبث، فلا يمكن أن تكون الحياة مجرد مسرحية، يتعانق الجميع، القاتل والقتيل، بعد إسدال الستار ويصفق

الجمهور، وإلا لما تحمّل الرسل المنزهون عن اللعب، عبء الرسالات، ولضاعت، هباءً، أنهار الدماء التى سالت على الأرض منذ بدء الخليقة، أكثر من مجموع المحيطات الأرضية، والأنهار بما فيها نهر النيل الذى رآه المستكشف الكبير حايد بن عمران، بعينىّ رأسه، ينبع من الجنة، ليس وحده بالطبع، فهناك سيحان وجيحان والفرات:

إذًا ما الحكمة من خلق الشيطان أو من تسليطه على بنى آدم بسلطان خفى قاهر.

هكذا تساءل **آدم** المخنوق بطبعه المكبَّل وعقله الساذج، وهو فى طريقه لإطفاء نيران الوجد المشتعلة فى ماء **وعد**، من دون أن يعلم أو يخطر بباله، ولو للحظة خاطفة، عبر فكرة مستبصرة، أنه سيكون ضيفًا ثقيلًا، غير مرغوب فيه، لآخر مرة على مائدة **فرج** العامرة، يقول آدم لنفسه، فى محاولات لن تنتهى لإسكات ما يمكن أن يسمى ضميرًا، أو منغصات لا لزوم لها:

إن الله يحاسبنا فحسب على عدم الانسجام مع طباعنا التى خلقنا عليها، كما قال الملاك للعابد، ليس لك أن تشغل قلبك بالاختيار، إنما عليك أن تعطى ما أبرزه الحق تعالى، على يديك من الأعمال، حقه، فإن كان طاعة تحمد الله تعالى، وإن كان معصية، تستغفر الله تعالى؛ وبالقطع رحمة الله واسعة، وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ؛ هو القائل ولست أنا، صدق الله، لكننى لم أعرف بعد لماذا سلط الشيطان علينا، على زوجى المسكينة، حواء الطاهرة النقية، ولماذا هى بالذات، أستغفر الله.

قال **آدم** بتأثر شديد ونفسٍ مذنبة منكسرة:

وربما يكون ذلك التسلط نوعًا من التحفيز على الطاعة؛ ليكون الإنسان دائمًا فى حوزة الرب، ولا يكون مثل خراف بنى إسرائيل الضالة، ولكن ذلك.

قال **آدم** بكآبة وقنوط:

لا يحدث دائمًا، فكيف يستطيع الإنسان أن يعيش حياته على حد السيف، فى حال استنفار دائم وتوتر مستمر، يقظة أبدية، ذلك فوق طاقة البشر.

أفاق **آدم** حين فاجأه **فرج**، قبل أن ينفض قدميه من غبار الطريق ويجلس:

فين الأمانة.

ارتبك **آدم**؛ الذى نسى البرشام، الذى أدمنه **فرج.**

آه.

قال **آدم** تلقائيًا وأخرج الفَرد، الذى ظل يتحسسه طوال الطريق، أمسكه **فرج** وهزه بيدٍ خبيرة، وبرقت عيناه، سأل:

معمر.

بظرف واحد.

أجاب **آدم** وهو ينظر إلى **وعد** التى تغذى الحجر بجمرات مشتعلة تضوى على صدرها الناهض.

شاخ **فرج** فجأة أو، لتوخى الدقة المفرطة، أحس بشيخوخة متأخرة مع انقطاع الماء، وعدم جدوى المقويات المجربة بجودة عالية، لرجال مثله يودعون الدنيا بأجسام استهلكتها الملذات المشتركة بين النوعين، المرأة والرجل، الملذات التى هى عصب الحياة، أو عدم توافرها، المقويات، أصلًا نظرًا لأسعارها المرتفعة، وندرتها حتى فى مخابئ وزارة الصحة، التى ينجح **آدم**، فى توفيرها بقدر محسوب، ليرضى غرور **فرج** الرجولى المنهار، ويجعله أسير رغبته، فيسمح **لآدم**، بالأحرى يتغافل، لا ننسى أن نصف الفطنة تغافل، أن يرى **وعد**، إحساس الشيخوخة هذا جعل **فرج** يتعلق بـ**وعد** تعلق الشيخ، وهو على سرير الموت، فى لحظات عمره الأخيرة، بآخر رمق فى الحياة، فيأكل **وعد**، تعويضًا عن أشياء أخرى، بعينين نهمتين يذلهما العجز، وجسم متهالك، رغم الروح المتوثبة لحنين ماضٍ بعيد، حين كان حصان الجسم يبارزها فى فنون القتال السريرى، الأرض غالبًا، ليس من أجل المتعة الخالصة الخشنة، أو المباهاة بفحولة نادرة، لكن دائمًا وبدرجة كافية من الوضوح، بل الشموخ أيضًا والتعالى لعدم وجود، حتى، سرير من المشمع المحشو بالقش، لكن **فرج** الآن، هذه الليلة ومنذ عرف **آدمَ** وشعور غامض يخامره نحو فعل فاحش، يعيد إليه ثقته المفتقدة من أزمان الفتوة الغابرة، حين كان قادرًا على حمل السلاح وإطلاق النار، بل الخنق بيدٍ، وباليد الأخرى يضرب على الدف، بقلب وضمير مستريحين، وابتسامة بعرض الوجه، وعودة منتصرة إلى حضن امرأة شابة، تتسيد القطيع لأنها رفيقة السيد القاهر من غير منازع، لم تكن **وعد** غالبًا؛ لأنها، فى ذاك الزمن السعيد، كانت أصغر من أن تلعب فى مجال رجولة **فرج القط**، الغاص بنساء القبيلة الناضحات سمنًا وعسلًا، لكن **القط** حين انفرد **بوعد** فى ليلة مظلمة، وتغلب عليها بعد سجن الأب، صارت جنته وناره بانفراد منقطع النظير، رغم القتل الذى ارتكبه من أجلها، كان **القط**، خاصة فى سنوات الرجولة الآفلة، يمتثل باقتدار لكل ما تقول **وعد**، صارت بمرور الزمن، ومن دون اتفاق مبرم، ورغم خوفها الدفين المترسب منذ الليلة التى افتضها فيها، وهى ما تزال طفلة تلهو فى

العشش، صارت هى، **وعد** الصغيرة الجميلة، الآمر الناهى، وإنْ على استحياء، حفاظًا على الشكل الهرمى الرجولى السائد فى عالم الغجر.

ناول **فرجُ آدمَ** بوصة الجوزة، انتبهتْ **وعد** إلى عينىّ **القط** فارتعبتْ؛ هى تعرف هذه النظرة، ظلت متوهجة تشعل النار، وتنظر إلى **آدم** بإشفاق، صهلل الحشيش فأحس **آدم** بخفة، أخذ يغازل **وعد** من دون مواربة، انبسطت أسارير **القط**، تبسم مثل أسد عن أنياب سوداء، أخيرًا جاءته الفرصة التى انتظرها طويلًا، من دون أى مجهود أو تخطيط، أحيانًا يخدم القدر هؤلاء الذين يريدون بإخلاص أفعالا محرمة، لكنهم يريدونها إرادة حقيقية.

الحمد لله.

قال **فرج** فى سره، ولا عجب، فكلنا تقريبًا يقولها، فى كل حال؛ إمعانًا فى التخفى وطلب الأمان، البعض يزيد، الذى لا يُحمد على مكروه سواه؛ رغبة فى إبداء سوء الحال، أو التشكى بشكل غير مباشر؛ لاستدرار العطف والشفقة، أو مواساة للنفس، البعض يضيف، فضل ونعمة، إظهارًا للتفوق الأخلاقى والتدين الاجتماعى.

قالها **فرج** وهو يتابع الشعاع الخفى المحمل بالأشواق الملتهبة، بين أربع عيون تخلت عن الحذر بفعل الحشيش والصهد الطالع من خدى **وعد**، ليس من أثر النار المتفحمة فى الركية، بل من النار المستعرة فى قلب امرأة عاشقة، تربص **القط** بصبر نمر يترصد فريسته اللاهية، حتى تلاقت أجفان **آدم** فى سلام إجبارى، وسقط رأسه على صدره، سنده **فرج** بحنو موهمًا **وعد** بأنه سيوصله، تظاهرت بتصديقه لعلمها المسبق بسرائر سيدها الغجرى، وسوابقه المشرفة فى سجل الإجرام الشخصى، الذى لا يشق له غبار، سارت **وعد** خلفهما على مسافة كافية، كالعادة متأصلة من أيام المرحومة أمها، وحين صوب **فرج** الفرد نحو صدر **آدم**، كاد يغمى على **وعد**، قتلتها الحسرة؛ لأنها لم ولن تتمكن من فعل شىء لإنقاذ رجلها العليل بحبها، الحشيش وفعل الزمن الطيب، وربما القدر الرحيم أيضًا، الذى قدّر أن يكون الفرد، الذى حمله **آدم** إلى **القط**، معمرًا بظرف واحد فقط، منذ أيام الشقاوات الليلية **لأبو همام**، كل ذلك أنقذ الموقف فى واحدة من الصدف النادرة، بأن تختل المسافات وتطيش الرصاصة فى الفراغ.

انشقت الأرض عن **فتلة** أشهر وأتخن عسكرى سوارى، فوق حصان يئن تحت ثقله الفادح، بدعوة صريحة ومبهمة من طلق نارى فج، خلخل سكون الليل ليجد **فرج** مزهوًا؛ لأنه يظن أنه تخلص،

بضربة حظ قدرية، إلى الأبد، من غريم لدود، فأخذه إلى المركز فى إشارة واضحة لانتهاء دور **فرج**، من حياة **وعد**، ربما إلى حين، الله وحده يعلم، وبداية العقوبة المؤجلة إلى ما بعد الموت، على جرائم لم ولن يسمع، أو يعرف بها بشر.

***

بات آدم يعانى البلهَ الطبعى لشخصٍ فى مثل موقفه النادر الحدوث، أن تنجو من الموت المحقق بيد غريمك اللدود، يفلتك الموتُ بأعجوبة قدرية، تمرق الرصاصة الوحيدة، التى حملها **آدم** نفسه إلى **فرج**، جنب الأذن بصرخة عمياء، لا تسبب سوى صممٍ مؤقت، ولا تفكر الرصاصة الرحيمة، لحظة واحدة، فى خرق القانون الأزلى للموت، الذى يأتى فى موعده المحدد سلفًا، بدقة إلهية متناهية، لا يتأخر لحظة ولا يتقدم لحظة، حسب تقرير الرب فى الساعات الأولى من عمر المخلوق فى ظلمات ثلاث، عمره، رزقه، شقى أم سعيد، ضمن أشياء أخرى يقررها الخالق بحسمٍ، ويكتبها الملكُ الموكل، قبل أن تجف الصحف وتُرفع الأقلام، حدث أيضًا مثلما هو مكتوب فى اللوح تمامًا، منذ الأزل، أن **وعد** التى باتت على الجمر، ترقب ما حدث، وما يحدث من بعيد، بقلب واجف، ظلت قابعة حتى انبلج النور، لا تقدر على الحركة، معتقدة أن **آدم** مات، لم يهدها عقلها المشلول، فى هذه اللحظة المرعبة، إلى أن **آدم** حى، وإلا لماذا تركه **فتلة**، عسكرى السوارى واسع البطن، من دون أن يحاول إيقاظه، وأيضًا لو أن الرصاصة أصابت **آدم** لما أحدثت هذه الفرقعة الهائلة فى الهواء.

اقتربت **وعد** بحذر، خائفة تتحسس الدماء، وجدت **آدم** نائمًا يتنفس بانتظام، حمدت الله، وهذه من المرات القليلة التى تحمد الله فيها بصدق ومن قلبها، أيقظت **آدم** ورجعت به إلى العشة، روت **لآدم** ما حدث كأنه حلم ضبابى، وهو لا يسمع، سدتْ الفراغات الضرورية، التى ربما لا يعرفها الراوى نفسه، بأن **فتلة** قبض على **فرج** وبحوزته الفرد الميرى المسروق من سلاح المركز، منذ زمن لا تتذكره.

أشعلت سيجارة ورشقتها فى فم **آدم**، وخلعت جلبابها الوحيد، جلست عارية، لكن **آدم** لم يكن مثلما كان البارحة، كان هامدًا، ارتدت **وعد** جلبابها بحزن منكسر، تكسو وجهَها، لأول مرة منذ عرفت **آدم**، حمرةُ الخجل التى تكسو خدود البنات ليلة الدخلة، قلبتْ شنطة بلاستيك سوداء، فانتثرت، على الأرض، الأساورُ والسلاسل والعقود الذهبية، والعملاتُ الموروثة من أيام أمها المرحومة، وقالت **لآدم** برجاء:

يلّا نهرب، ونعيش فى أى بلد.

نظر **آدم** إلى الفراغ، غير مصدق أنه حى يُرزق، وأن **القط** ليس موجودًا، الآن على الأقل، فى هذه اللحظة العبقرية التى تجمعه **بوعد**، حاول **آدم**، بصعوبة بالغة، لكن من دون شغف، أن يستوعب ما حدث، وما يحدث، وما يمكن أن يحدث، مرت حياته، أمام عينيه، وغاصت، بسرعة البرق، فى غياهب نسيان ماكرة، حاول مرة أخرى، من دون همة، أن يفعل شيئًا، أى شىء، ولو شيئًا تافهًا، يُخزى به عينَ الشيطان.

عن الكاتب

2007 رُشحت له معقبات للبوكر.

2009 أسس والشاعر سليمان الزهيري نادي أدب طوخ.

2011 رأس تحرير النشر الإقليمى ونادي أدب محافظة القليوبية.

2012 نالت امرأة في المنام جائزة إحسان عبد القدوس.

2013 رُشحت امرأة في المنام للبوكر.

2015 نالت حتى مطلع الفجر المركز الأول بمؤتمر شبرا الأدبى.

2016 تكريم الدولة.

2018 نالت بالأمس أنجزت حياتي جائزة عصير الكتب.

2018 أسس والأستاذ أسامة أبو حليمة والدكتور مجدي وهبة والدكتور حمدي عبد العاطي والأستاذ الشافعي أبو عيش، المقهى الثقافي.

روايات:

1ـ له معقبات ـ ط1 أصوات أدبية 2006 ط2 بدائل 2018

2 ـ امرأة في المنام ـ حروف 2013

3 ـ حتى مطلع الفجر ـ مؤسسة الحسينى 2015

4 ـ بالأمس أنجزت حياتي ـ عصير الكتب 2018

5 ـ رَبُّ السَعادَةِ ـ بدائل 2019

قصص:

1ـ حضرة الوردة ـ إشراقات جديدة 2002

2 ـ الروح تسأم أحيانًا ـ إبداعات 2003

3 ـ سلف ودين ـ الهيئة العامة المصرية للكتاب 2007

4 ـ أطفال بأجنحة بيضاء ـ كتابات جديدة 2009

5 ـ ساعة الحظ ـ اتحاد الكتاب 2010

6 ـ يوم مشرق ـ الهيئة العامة لقصور الثقافة 2011

7ـ يجوز ـ الهيئة العامة المصرية للكتاب 2015

أطفال:

1ـ حكايات الأجداد المدهشة ـ قطر الندى 2011

2 ـ السعادة كنز الحب ـ كتاب الهلال للأولاد والبنات 2014

3 ـ الصغيرة التي تحكي الحكايات ـ المركز القومي لثقافة الطفل 2015

4 ـ صانع المعجزات ـ قطر الندى 2016

5 ـ بيت كل الناس ـ المركز القومي لثقافة الطفل 2018

6 ـ يُحكى أنَّ ـ سنابل 2018